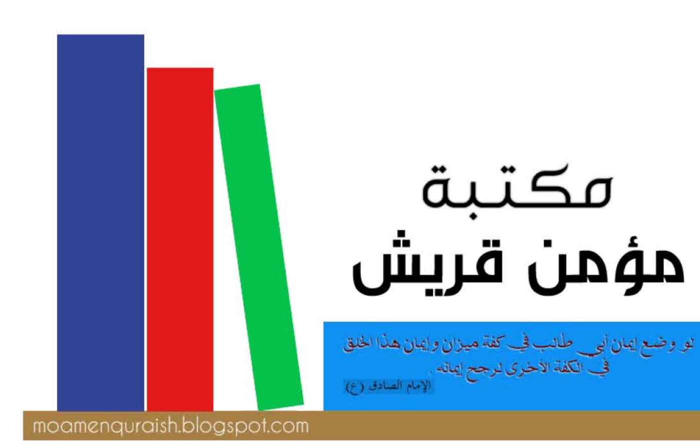

مدخل
إلى علم
الأخلاق

شفيق جرادي


دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

مدخل إلى علم الأخلاق

الشيخ شفيق جرادي

دار المعارف الحكمية

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-017-3

[١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.]



العنوان، لبنان - بيروت - سان تريز - سنتر يحفوفي - بلوك C - ط٣

تلفاكس، ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - Email: almaaref@shurouk.org

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

مقدّمة

تحتلّ الأخلاق موقعًا محوريًّا في المنظومة الإسلاميّة، فهو كما يقول العلّامة الطباطبائي يتعدّى كونه أمرًا نظريًّا، فيتحول إلى دين وعمل وعقيدة. فهذا العلم ذو بعدين، أحدهما إلهي لأنّ الله تعالى أمر بها، والآخر إنسانيّ لأنّ موضوعها الإنسان من جهة. وبهذا المعنى تكون الأخلاق علمًا تكامليًّا يسعى لإيصال الإنسان إلى كمالاته.

فالتحلّي بالأخلاق الفاضلة يسمو بالإنسانيّة نحو الطهر والرقيّ في مراتب الكمال، وفي هذا السياق كان الاهتمام بعلم الأخلاق ودراسته وتعلّمه وتعليمه من الأمور التي اضطلع المعهد بها؛ كونه علمًا يدور موضوعه حول تهذيب النفس والفضائل بالواقعيّة وكذلك التنفير من الرذائل. من هنا، تحتّم تقديم دراسة تعليميّة، وهذه الدراسة تعالج المسألة الأخلاقيّة بلحاظ بحثيّ تحليليّ وتوجيهيّ وتعليميّ.

وهي بحثيّة لأنّها ارتكزت على العمل البحثيّ من حيث المنهجيّة والعرض، فعملت على متابعة ما كُتب في هذا الموضوع، وقامت بعرضه وتثيره بسياق علميّ- تعليميّ.

وتأتي هذه الدراسة في سياق سلسلة كتب بحثيّة تعليميّة، يقوم المعهد بإعدادها. والمنهج المتّبع كان على الأسس التالية:

- استعراض أهمّ النظريّات الأخلاقيّة الإسلاميّة، بحيث يتيسّر للقارىء والدارس الاطلاع عليها والاستفادة منها تعليميًّا وبحثيًّا.
- قُسّمت الموضوعات تقسيمًا يراعي التدرّج التعليميّ لإفساح المجال أمام تعليمها بشكل ممنهج.
- بعد نهاية كلّ وحدة دراسيّة، وضعت أسئلة تقويميّة تطرح لاستكشاف مدى فهم المتعلّم للمطالب الموجودة في الدرس.
- ضمن الكتاب عناوين أنشطة بحثيّة وتحليليّة. والهدف منها كتابة ملخّص بحثيّ أو دراسة موجزة عن بعض المطالب وهذا يعمق المسائل أكثر ويجعل الطالب محورًا في عمليّة استكشافها، ويدرّبه على عمليّة التحليل.
- تضمّن الكتاب بعض المشجّرات البيانيّة توضيحًا للنظريّات وتشعبّاتها.

مقدمة

هذا، وقد قُسِّم الكتاب إلى فصلين، الأوّل يتعلق بالمدارس والمذاهب الأخلاقيّة، والثاني في معرفة النفس وجهادها، وبالإضافة إليهما ضمّ كلّ قسم من القسمين على ملحق.

سمير خير الدين

الفصل الأوّل: المدارس والمذاهب الأخلاقيّة

العناوين الرئيسة :

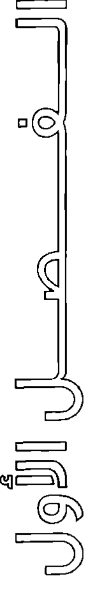
أ - معنى الأخلاق

ب - مسالك الأنظمة الأخلاقيّة

ج - موضوع علم الأخلاق وشرف منزلته

د - ملاك الفعل الأخلاقي حسب النظريات الأخلاقية

هـ - المعيار الأخلاقي



إذا كان أصل وجود الإنسان مرتبط بالمصير والمآل الحتميّ الذي يسير إليه، وهو الرجوع إلى الله سبحانه، وإذا كان الإنسان لم يخلق عبثًا، وإنّما كان خَلْقُه ليترقّى وليصل إلى كماله الإنسانيّ، فإنّ البحث عن الطريق لتحقيق ذاك الكمال يصبح من أكثر الضرورات التي يحكم بها العقل، والتي يأمر بها ربّ العالمين سبحانه وتعالى وذلك لينسجم خُلُقُه مع أصل خَلْقِه.

وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

هذا التكامل الذي يوصل إلى الباري سبحانه بنفس مطمئنة، مشروط بتعرّف الإنسان إلى سرّ خلقه؛ معرفته من أين أتى؟ ولماذا خُلق؟ وإلى أين يسير به القدر والمصير؟ وما الذي ينتظره؟ وما هي الوظائف والتكاليف والأعمال والسلوكيّات التي عليه أن يلتزم بها؟ وماذا يريد ربّ العالمين منه؟ وهل يمكن له - لنفسه التي بين جنبيه - أن يتخلّى عن سنن ربّ العالمين وأوامره؟ أم أنّ العبث المودي إلى نار الآخرة وعذابات الدنيا يكمن في التخلّي عن تلك السنن والأوامر الإلهيّة؟

وقبل هذه الأسئلة، عليه أن يتعرّف أيضًا على وجوده الآخر الذي هو - غير البدن - نفسه المتجرِّدة وحقيقتها، وطبيعة القوى التي تتكوّن منها وتحرّكها، وطبيعة ارتباطها بمصدرها وباريها، وكيفيّة تهذيبها وتربيتها، وإعدادها للقاء الحتميّ، بالوقوف بين يدي ربّ العالمين؛

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[3].

واللقاء والوقوف المطمئنّ، إنّما يحصل بعد السعي والجدّ والاجتهاد للتخلّق بأخلاق الله، وهذا هو كمال العبوديّة وسرّ الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[4].

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ١١٥.

(٢) سورة **يونس**، الآيتان ٧ و ٨.

(٣) سورة **الكهف**، الآية ١١٠.

(٤) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.

فإذا كان الله رحيمًا، فَلْنَتَلَقَّهُ بخُلُقِ الرحمة؛ وإذا كان الله عفوًّا، فَلْنَتَلَقَّهُ بخُلُقِ العفو، وإذا كان سبحانه حليمًا، فَلْنَتَلَقَّهُ بخُلُقِ الحلم. وهذا ما لا يتمّ إلّا بعد سلوك درب تصفية النفس من معايبها والتحلّي بمحاسن الأخلاق، وضبط قوّتَي الشهوة والغضب تحت حكم العقل والشرع. وهنا نؤكّد:

«إنّ تهذيب النفس والتخلّق بالفضائل، وإن كان من أوجب الواجبات العقليّة والشرعيّة وله مقام محمود، وعلمه أشرف العلوم، إلّا أنّه ليس أكثر من وسيلة للوصول إلى مقام العبوديّة؛ فكما أنّ العبادات كلّها قد شُرِّعت والنواهي كلّها قد مُنعت واستُقبحت للوصول إلى مقام القرب والعبوديّة، فكذلك التهذيب والترفُّع عن الرذائل، والتخلُّق بالفضائل لها نفس الغاية والغرض.

فلذلك نرى أنّ الواصلين إلى مقام اللقاء عدّوا التهذيب والتخلُّق من المقدِّمات والمنازل، فهم كانوا يقولون إنّ المنازل للوصول إلى القرب خمسة: التوبة واليقظة والتخلية والتحلية والتجلية.

ومرادهم من التوبة الرجوع من التقصيرات والقصورات ونبذ المعاصي والخطايا، والإنابة والرجوع والتضرّع إلى الله تعالى، واستشعار الندم والحياء، والإقرار بأنّه – أي التائب – فقير كلّ الفقر ولا مؤثّر في الوجود إلّا الله تعالى الذي يبدِّل السيّئات حسنات. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[5].

أمّا المراد من اليقظة فهو التنبُّه والتقيُّد بظواهر الشرع من الواجبات والمستحبّات واجتناب المحرّمات. قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6].

والمراد من التخلية تهذيب النفس عن الرذائل. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[7].

والمراد من التحلية التخلُّق والتحلّي بالفضائل والوصول إلى مقام الأمن

(٥) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.

(٦) سورة **النحل**، الآية ٩٧.

(٧) سورة **الشمس**، الآيات ٩- ١٠.

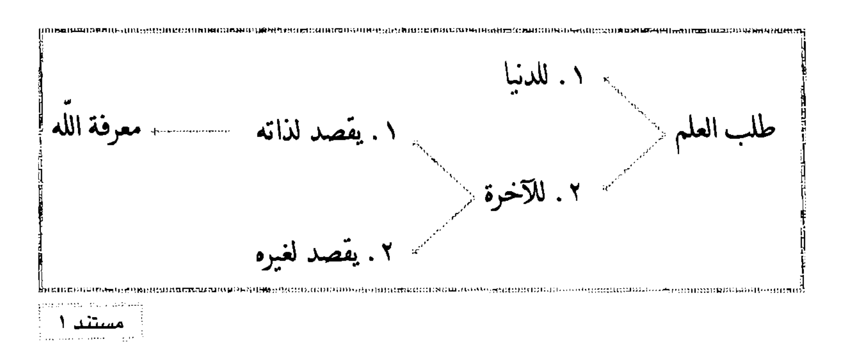
والاطمئنان. قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[8].

أمّا المراد من التجلية فهو تنوير القلب بنور المعرفة. قال الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[9].

ثمّ قالوا إنّ طيّ هذه المنازل يوصل السالك إلى مقام اللقاء بمراتبه؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[10]، ومرادهم من اللقاء ومراتبه ليس إلّا مقام القرب والعبوديّة وحكومة الله تعالى على القلب»[11].

عليه، فإنّ الغاية من معرفة الأخلاق وتعلّم هذا العلم ليست ذاتيّة بمعنى أنّنا لا نتعلّمه لأنّنا نريد تعلّمه - بل المراد هو الوصول، عبر طريق الأخلاق الشريفة، إلى الغاية المحمودة وهي تحقيق رضا ربّ العالمين والأنس بالعيش في جنّة نعيم ولاية الله سبحانه وأوليائه.

بناءً على ذلك، يمكن لنا القول:



مستند ١

أوّلاً: إنّ طلب العلم ينقسم إلى: ما يُطلب للدنيا، وما يُطلب للآخرة. وما يطلب للآخرة إمّا أن يُقصد لذاته وهو الخاصّ بمعرفة الله بحيث يرتفع

---

(٨) سورة **يونس**، الآية ٦٢.

(٩) سورة **الأنعام**، الآية ١٢٢.

(١٠) سورة **الكهف**، الآية ١١٠.

(١١) مظاهري، **دراسات في الأخلاق وشؤون الحكمة العلميّة** (دار التعارف للمطبوعات)، الجزء ١، الصفحة ٣٤.

الغطاء والحجاب عن القلب والنفس فيعرف الإنسان ربّه سبحانه، وإمّا أن يقصد لغيره، إذ **معرفة الله هي الأصل**. وهذا الأمر حتّى يحصل يحتاج إلى تصقيل مرآة القلب عن الأدران والخبائث والمعاصي، إذ هي الحجاب عن معرفة الله. وللحصول على ثمار هذه العمليّة، لا بدّ من علم بأحوال القلب وهو: علم الأخلاق؛ كما لا بدّ من علم الشرائع والتزام السلوك الذي يريده الله من عباده. وهذان العلمان يُقصدان بهدف القرب من الله ومعرفته سبحانه، ممّا يعني أنّ علم الأخلاق علمٌ مطلوب لغاية هي الأسمى في حياة الإنسان ومصيره وهي القرب من الله ومعرفته سبحانه. وقد ورد عن الإمام عليّ عليه السلام وصفٌ لمن التزم هذا الطريق: «قد أحيا قلبه وأمات نفسه حتّى دقّ جليله ولَطُف غليظُه، وبرق له لامع كثير البرق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»[12].

ثانيًا: إنّ معرفة الأخلاق، وإن كانت في بعض جوانبها نظريةً، إلّا أنّها معرفة تفقد هدفيّتها إذا خرجت عن إطار التفاعل المعنويّ الذي ينعكس في نوعيّة الرؤية الخاصّة بالإنسان وفي ضميره وحقيقة إيمانه الاعتقاديّ وسلامة قلبه وروحه وسرّه، وهويّة تصرّفاته السلوكيّة.

ثالثًا: إنّ الإسلام بما هو الدين الخاتم استبانت كلّ معالمه وأصوله وأركانه في الكتاب العزيز. فإنّ القرآن الكريم قد حدّد للإنسان أصول ومعاقد قيمه الأخلاقيّة ونظامه الأخلاقيّ، وقد ربط الباري سبحانه الأخلاق بالرؤية الإيمانيّة العقائديّة، بحيث إنّ الأخلاق القرآنيّة تكاد تكون ذات جنبة عقائديّة، إذ هي فرع انبثق عن أصل وجذر الشجرة العقائديّة الإلهيّة الطيّبة. ذلك أنّ الإسلام والقرآن الكريم إنّما جاءا بما في فطرة الإنسان التي فطره الله عليها - ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[13]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ

---

(12) خطب الإمام علي، عليه السلام، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، ١٤١٢هـ)، الجزء ٢، الصفحة ٢٠٤.

(13) سورة **طه**، الآية ٥٠.

﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[١٤]– ليؤكّدا على قابليّات الخير لدى الإنسان وليدفعا بها نحو حقل الظهور الفعليّ والتأثير العمليّ في سلوكه وتفكيره، وليرسما له الهدف المعبِّر عن حقيقة كماله، ثمّ يوجّهانه لسلوك الطريق المنسجم مع ما فيه من قابليّات أودعها الله فيه. هذا الطريق المودي نحو الهدف، جذره يبدأ من الجانب العقائديّ بمحاوره الأساسيّة وأصوله الاعتقاديّة التي تشكّل جذع القيم الأخلاقيّة بفروعها، وبما يرتبط بها من سلوك التزام الأحكام العباديّة الفرديّة والجماعيّة والسياسيّة التي تبثّ الروح في الأخلاق، وتذكّر بالمصدر العقائديّ، وليتكامل الإنسان بهذه الأبعاد الثلاثة: العقيدة والأخلاق والتشريع، على حسب الصراط الإلهيّ المستقيم الذي أولاه الله سبحانه إيّاه.

رابعًا: يبقى أن نشير هنا إلى أنّنا ينبغي أن نفرّق بين الأخلاق والأخلاقيّات – وهي التي تسمّى بالسلوكيّات – إذ قد نجد سلوكيّات وأخلاقيّات متوافقة بين أصحاب اتّجاهات دينيّة وعقديّة مختلفة، لكن، وبنفس الوقت، فإنّ هناك اختلافًا يكون حاصلًا بين هذا النظام الأخلاقيّ، أو ذاك النظام.

والنظام الأخلاقيّ الذي سندرسه في هذا الكتاب بشكل أساسيٍّ هو النظام الأخلاقيّ في الإسلام، والذي يقوم على مبدأ التوحيد، لذا نسمّيه «الأخلاق التوحيديّة» وهي تختلف عن النظم الأخلاقيّة القائمة على الجذر أو المبدأ العرفيّ أو العرضيّ أو القانونيّ، بل تختلف عن كثير من النظم الأخلاقيّة الدينيّة.

نقاش وتحليل

قارن بين «الأخلاق التوحيديّة» والنظم الأخلاقيّة القائمة على الجذر أو المبدإ العرفيّ أو العرضيّ أو القانونيّ.

أ- معنى الأخلاق

تعريف الأخلاق

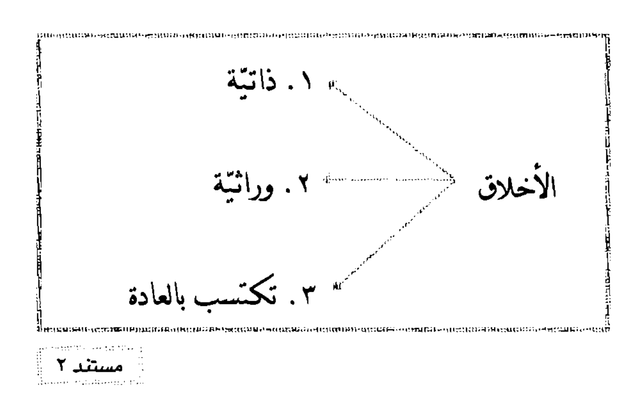
الأخلاق صفات راسخة في النفس موجبة لصدور أفعال متناسبة معها، من دون

---

(١٤) سورة **الروم**، الآية ٣٠.

إعمال رويّة وتفكُّر، وهي قد تكون ذاتيّة، أو وراثيّة، أو تكتسب بالعادة والمران.

أمّا علمُ الأخلاق فهو البحث عن الأنواع الحميدة والسيّئة للأخلاق، والصفات المرتبطة بأفعال الإنسان الاختياريّة، كما والبحث عن الطرق والسُبُل الكفيلة باكتساب الصفات الحميدة والابتعاد عن الرذيلة، إضافةً إلى البحث عن مدى إمكانيّة وقابليّة تحصيل الإنسان مثل هذا الاكتساب الأخلاقيّ.



مستند ٢

أمّا فلسفة الأخلاق فهي بحثٌ في المبادئ التصديقيّة لعلم الأخلاق، وكونه مصدر الأفعال الحسنة والسيّئة، وملاك نعت الفعل بالخيرٍ أو السيّء، ومنبع ينبع الخير والشرّ أو السوء(١٥).

وإذا أردنا التدقيق أكثر في معنى الأخلاق أو الخُلُق فقد تناولها أبو حامد الغزّالي بالقول:

فالخُلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة. فإذا كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا، سمّيت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سمّيت الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا، وإنّما قلنا أنّها هيئة راسخة، لأنّ من يصدر منه بذل المال على الندرة لحاجة عارضة، لا يقال خُلُقه

(١٥) مستفاد من كتاب الأخلاق في القرآن، للشيخ مصباح اليزدي.

السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه[١٦].

وإنّما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رويّة، لأنّ من تكلّف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد ورويّة لا يُقال خُلُقه السخاء والحلم.

فهناك أربعة أمور:

١. أحدها: فعل الجميل والقبيح.
٢. الثاني: القدرة عليهما.
٣. الثالث: المعرفة بهما.
٤. الرابع : هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسّر عليها أحد الأمرين، إمّا الحسن وإمّا القبيح.

وليس الخُلق عبارة عن الفعل، فرُبَّ شخص خُلُقُه السخاء ولا يبذل، إمّا لفقد المال أو لمانع. وربّما يكون خُلقه البُخل وهو يبذل إمّا لباعث أو رياء.

وليس هو عبارة عن القوّة – القدرة - لأنّ نسبة القوّة إلى الإمساك والإعطاء، بل إلى الضدّين واحد، وكلّ إنسان خُلِق بالفطرة قادرًا على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خُلق البخل ولا خُلق السخاء.

وليس هو عبارة عن المعرفة، فإنّ المعرفة تتعلّق بالجميل والقبيح جميعًا على وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعدّ النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل، فالخُلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة[١٧].

وكلام أبو حامد هذا يستدعي طرح سؤال مفاده: هل هذه الهيئة الراسخة، الصالحة منها أو الطالحة، تكون ذاتيّة عند الإنسان بحيث لا يمكنه تغييرها، وبالتالي فلا حاجة لموعظةٍ ولا تربية ولا دين. أم أنّ بإمكان التربية والجدّ والاجتهاد تغيير ما بالأنفس بحيث يمكن تبديل الخُلق من السيّء إلى الحسن وبالعكس؟ وممّا لا شكّ فيه أنّ الوجدان والقرآن والواقع حاكم على إمكان مثل هذا التغيير في النفوس.

---

(١٦) الجرجاني، **التعريفات** (مكتبة لبنان، ١٩٨٥م)، الصفحة ٤١.

(١٧) أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين** (بيروت: دار المعرفة)، الجزء ٣، الصفحة ٥٣.

ولهذا كان علم الأخلاق وهو العلم الذي من خلاله يتمّ التعرُّف على الملكات الإنسانيّة الفاضلة، والقوى النفسيّة، وطبيعة ودور ووظيفة كلّ منها، من أجل استكمال هذه النفس بملكات الكمال الإنسانيّ ولتصل كلّ القوى فيها إلى الغاية التي خلقت لأجلها، حتّى يتمّ بذلك تحقيق سعادة الإنسان بسرّ العبوديّة لله سبحانه وتعالى وليكون لائقًا بالسير على طريق الفناء في الله والبقاء به سبحانه وتعالى.

تقويم

١- ما علاقة الأخلاق بالرجوع إلى الله تعالى؟
٢- عدّد منازل الزصول إلى القرب واشرحها.
٣- حلّل ما هي الغاية لعلم الأخلاق؟

ب- مسالك الأنظمة الأخلاقيّة

إذا كان العلم والمسلك الأخلاقيّ له ثمارٌ ضروريّة في حياة الإنسان. وإذا كان الإنسان بإرادته وعمله وخياره الحرّ يمكن له تبديل سلوكه السلبيّ إلى سلوك خيِّر. وإذا كان النظام الأخلاقيّ يختلف بحسب المبدأ الذي ينطلق منه. فما هي الطرق أو المسالك الأخلاقيّة المحقِّقة لهذه الثمار الإنسانيّة الطيّبة؟

يذهب العلامة الطباطبائيّ – قدس سرّه - إلى وجود ثلاثة مسالك ممكنة في عمليّة تربية النفس وتهذيبها، ويعتبر أنّ الغاية التي يقصدها الإنسان هي التي تميّز المسلك الذي ينتهجه؛ ويقوم بتقسيمها إلى المسالك التالية:

المسلك الأوّل:

تهذيبها بالغايات الصالحة الدنيويّة، والعلوم والآراء المحمودة عند الناس، وهذا هو المسلك المعهود عن فلاسفة اليونان وغيرهم، ولم يستعمل القرآن هذا المسلك المبنيّ على انتخاب الممدوح عند عامّة الناس عن المذموم عندهم، والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه.

المسلك الثاني:

تهذيبها بالغايات الأخرويّة، وهو مسلك الأنبياء وهو يفترق عن الأوّل بأنّ الغاية المقصودة هي تحصيل الخير الحقيقيّ الكامن في دين الله سبحانه، ويتحقّق في تحصيل السعادة التي يتكامل بها الإنسان وينالها في الآخرة، وقد كثر ذكر هذا المسلك في القرآن الكريم كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[18].

المسلك الثالث:

وهو مسلك مخصوصٌ بالقرآن الكريم، ومفاده تربية الإنسان بحيث لا يبقى للرذائل معه أيّ أثر. ومؤدّى هذا المسلك الربط التامّ بالله سبحانه وتعالى، بحيث لا يرى العبد في الوجود غير الله سبحانه [إن الملك إلّا لله] ويرى كلّ شيء خاضعًا له ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[19] وكلّ شيء عايد له ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾[20] وإليه المصير وإكمال ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[21].

بذلك لا يبقى لشيء من الموجودات تحقّقًا دونه، ولا استغناء لشيء عنه، فهو المالك لكلّ شيء، فإذا آمن الإنسان بهذا النحو من الإيمان صارت عنده كلّ ذوات الأشياء وصفاتها وأفعالها تابعةً له سبحانه. وبهذا لا يستحقّ القصد والحركة والفعل والتوجّه والعمل والتفكير والعبادة والجهد والجدّ والإجتهاد إلّا الله سبحانه وتعالى.

فلا حزن إلّا بالبعد عنه، ولا فرح إلّا بلقائه، ولا اتّكال ولا ثقة ولا تسليم ولا توكّل إلّا عليه عزّ اسمه. وبالجملة، فلا يعود الإنسان يطلب شيئًا غير وجه الحقّ الباقي بعد فناء كلّ شيء، ولا يعبأ بشيء إلّا رضا الله وتحقيق رضوانه سبحانه وتعالى. وبعبارة أخرى «فإنّ العبد إذا أخذ إيمانه في الاشتداد والازدياد، انجذبت نفسه إلى التذكّر والتفكير والشوق والارتباط الكامل بالله سبحانه،

---

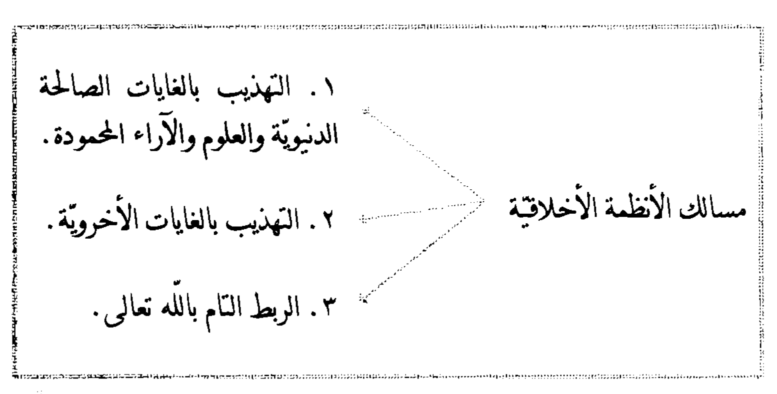
(18) سورة **التوبة**، الآية ١١١.

(19) سورة **طه**، الآية ١١١.

(20) سورة **الإسراء**، الآية ٢٣.

(21) سورة **النجم**، الآية ٤٢.

فيتخلّق بأخلاق الله سبحانه، وهي التي تُسمّى بأخلاق التوحيد، والتي تصير فيها نفسه قائمة بعبوديّتها المطلقة تحت عِزّ الربوبيّة، لأنّ أولياء الله سبحانه بعزّته يعتزّون».



مستند ٣

تقويم

١- أجرِ مقارنة بين النظم الأخلاقيّة الثلاثة، مبرزًا أهميّة كلّ مسلك منها.

ج- موضوع علم الأخلاق وشرف منزلته

قد يعتقد البعض أنّ موضوع علم الأخلاق هو «الفضائل» و «الرذائل»، وهو اعتقادٌ، وإن كان فيه شيء من الصحّة، لكن يبقى أن نشير إلى أنّ الفضائل والرذائل من حيث اتّصاف الإنسان بها، هي موضوع علم الأخلاق، لأنّها من دون هذا الاتّصاف لا تمثّل بذاتها أيّ قيمة تُذكر، إذ علم الأخلاق هو من العلوم العمليّة التي ينبغي مراعاة جنبة التطبيق والالتزام والممارسة – السلوك – فيها، وقيمتها العلميّة إنّما تتأتّى من هذا اللحاظ التطبيقيّ.

هذا، ويقوم مفهوم هذا العلم على غاية هي من أشرف الغايات، لأنّه بتطهير النفس تصير صالحةً لتلقّي المعارف الإلهيّة، وتتّصف بالصفات الربانيّة. وموضوعه الفعليّ، أو إن شئت فقل حقل اشتغاله الفعليّ، هو «النفس المطمئنّة» التي تمثّل كمالَ الإنسان وميزته التي امتاز بها عن بقيّة المخلوقات. والإنسان لا

يصل إلى «النفس المطمئنّة» إلّا بقاعدتين:

الأولى: العلم والمعرفة.

الثانية: الإخلاص في إرادة الالتزام بأوامر الله سبحانه ونواهيه والتقيّد والانضباط بسنن الحياة التي جعلها البارئ سبحانه، وترك أيّ منهما يوصل إلى نتائج مشؤومة. فعن الإمام عليّ عليه السلام قوله: «قصم ظهري رجلان عالم متهتّك، وجاهل متنسّك»[22].

أمّا إذا التزم بهاتين القاعدتين، فإنّه يصير ذاك الإنسان الذي أهّله ربّه بحسب القرآن الكريم لجملة من الكرامات، منها:

أ. خليفة الله في أرضه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[23].

ب. حامل سرّ الأسماء: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[24].

ج. مستحفظ روح الله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[25].

د. المخلوق الذي أمر الله الملائكة بالسجود له: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[26].

ه. حامل أمانة الله سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[27]؛ والظلم هنا إذا لم يقدّر الإنسان قيمة الأمانة بتركه الالتزام بها وبلوازمها. أمّا الجهل فلعلّه الغفلة وعدم العلم بسرّ هذه الأمانة الموصلة إلى مقام الإنسانيّة العالي، بلقاء الله سبحانه وتعالى.

(٢٢) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة** (مؤسّسة الإسماعيليّان للطباعة والنشر والتوزيع)، الجزء ٢٠، الصفحة ٢٨٤.

(٢٣) سورة **البقرة**، الآية ٣٠.

(٢٤) سورة **البقرة**، الآية ٣١.

(٢٥) سورة **الحجر**، الآية ٢٩.

(٢٦) سورة **الحجر**، الآية ٣٠.

(٢٧) سورة **الأحزاب**، الآية ٧٢.

نقاش وتحليل

ماذا تعني العبارة التالية: «والظلم هنا إذا لم يقدّر الإنسان قيمة الأمانة بتركه الالتزام بها وبلوازمها».

د- ملاك الفعل الأخلاقيّ حسب النظريّات الأخلاقيّة

إنّ أفعال الإنسان تنقسم إلى:

١. **الفعل العاديّ**، وهو الفعل الذي يقوم به الإنسان دون أن يخضع لأيّ من ضوابط ومعايير الحسن والقبح.

٢. **الفعل الأخلاقيّ**، وهو ما يحمل معنى وقيمة فاضلة أو فاسدة. ومن نماذج الفعل الأخلاقيّ الفاضل ما ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «يا عليّ! ثلاث من مكارم الأخلاق: تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمّن ظلمك»[٢٨].

وفي دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّد وسدّدني لأعارض من غشّني بالنصح، وأجزي من حرمني بالبذل، وأكافي من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتباني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة»[٢٩].

يبقى السؤال الذي علينا طرحه: ما هو المائز بين الفعل العاديّ والفعل الأخلاقيّ؟ وما هو الملاك الذي يفرّق ويفصل بين الإثنين؟

وللإجابة عن مثل هذا التساؤل تولّدت بعض النظريّات منها:

النظريّة العاطفية

التي تعتبر أنّ الأخلاق هي العواطف التي تتجاوز الذات الفرديّة لتصل إلى ما يجمع بالمحبّة مع الإنسانيّة كلّها، وذلك بتحسُّس آلامها وأحلامها والعمل على إيصال الخير لها.

ومنشأ هذا التواصل مع الإنسانيّة هو خضوعها لقوّة حاكمة علينا أن نتماهى معها. وهذا التماهي لا يحصل إلّا بغلبة النفس الفرديّة وقهرها، إذ بتجاوز

---

(٢٨) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، تحقيق علي أكبر الغفّاري (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة ٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٧٤، الصفحة ٦٢.

(٢٩) دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال.

عقبة الذات نصل إلى هذه القوّة الحاكمة. وهذه النظريّة، وإن كانت تحمل الكثير من الإيجابيّات، إلّا أنّه لا يمكن اعتبار كلّ محبّة فعلًا أخلاقيًّا، فقد تكون المحبّة طبعًا إنسانيًّا من مثل محبّة الأمّ لولدها، علمًا أنّ محبّة الأمّ لولدها تفتقد طابع الاختيار، وبالتالي، فهي أمرٌ طبْعيّ، وليس اختياريًّا أخلاقيًّا، إذ من شروط الفعل الأخلاقيّ أن يكون إختياريًّا.

ثمّ إنّ انعكاس هذا النحو من الحبِّ المستسلم على كلّ من يستحقّ ومن لا يستحقّ، فضلًا عن كونه يؤسِّس لأخلاقيّات الضعف والوهن والاستسلام، فإنّه سيمنع من مواجهة الظلم والجور والرذيلة وإدانتها ووضع القوانين لمنعها وهذا انجرافٌ إلى عبثيّة اجتماعيّة وإنسانيّة لا أخلاقيّة.

وأخيرًا، فإنّ الإنسان لا يقدر أن يحبّ الناس إلّا من خلال النظر إلى إنسانيّته الفرديّة وهذا ما يشير إليه قول أمير المؤمنين لابنه الإمام الحسن، عليهما السلام: «يا بنيّ اجعل نفسك ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها»(٣٠).

نظريّة الإرادة

تقوم هذه النظريّة على التفريق بين الميل والإرادة عند الإنسان. فالميل انجذاب باطنيّ نحو الأشياء الخارجيّة، أمّا الإرادة فهي من متعلّقات الأمور الباطنيّة التي تأتي بعد أن يفكِّر الإنسان، ويقارن بين الأفعال وعواقبها، ثمّ يقيس بعقله مقدار ما فيها من مصالح ومفاسد، ثمّ يُشخّص ما هو الأصلح والأفضل، عندئذ يريد ما يأمر به العقل لا ما يجرّه إليه الميل(٣١).

فهذه النظريّة تعتبر أنّ الأخلاق ناتجة عن الإرادة، بحيث تغدو الأخلاق الكاملة وليدة العقل والإرادة اللذين يُخضعان الميول الفرديّة والنوعيّة لسيطرتهما.

نظريّة الجمال

وأصحاب هذه النظريّة ذهبوا إلى أنّ الجمال هو التناسق بين المطلق والمحدود، وهو وليد العشق والحبّ لذاك التناسق والتناغم والانسجام. وإذا ما

---

(٣٠) **شرح نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٤٦.

(٣١) للمزيد انظر: **فلسفة الأخلاق** للشهيد مرتضى المطهري.

أدرك الإنسان سرّ الجمال التزم به ولم يخالفه.

وللجمال هذا ألوان لا تنحصر بالجانب الماديّ، فهناك جمال اللغة في الفصاحة والبلاغة، وجمال المضمون في الكلمات ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[٣٢]، والجمال العقليّ، بمعنى الحسن العقليّ في مقابل القبح العقليّ، وجمال الوجود الذي تسري فيه أخلاقيّات الجمال التي على المرء التماهي معها.

نظريّة العبادة

وهي نظريّة تحدّث عنها الشهيد مرتضى المطهّري في كتابه **فلسفة الأخلاق** ومفادها أنّ الإنسان في عمق ذاته يستحضر صلة العلاقة مع المطلق الكامل المعبود، وهذا الذي يسمّيه مطهّري بالعبادة الذاتيّة، وهي غير الأعمال العباديّة من صلاة وصوم وشعائر إذ سواءً وعى الإنسان لهذه العلاقة العباديّة أم لم يعها، فإنّها موجودة بعمق ذاته، إذ كلّ إنسان يطلب الكامل وإن فسّره بطريقته.

وهنا، يوضح مطهّري مقصوده بالعبادة فيقول: «العبادة تعني: الخروج من دائرة الذات المحدودة والضيّقة، الخروج من محدوديّة الآمال والتمنّيات، والانطلاق والعروج إلى الكمال المطلق، وهذا هو المقصود بالتقرّب من المعبود تعالى»[٣٣].

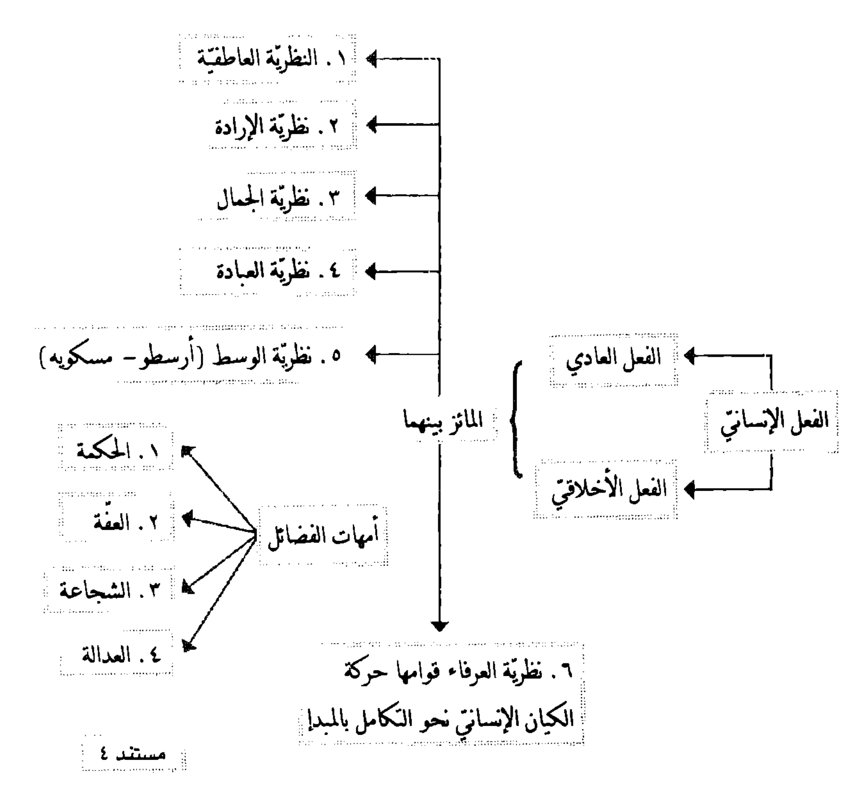
وهكذا يتوصّل إلى اعتبار أنّ الأخلاق من مقولة العبادة، إذ الإنسان يتبع سلسلة من التعاليم الإلهيّة بقدر ما يعبد الله تعالى بطريق اللاشعور، ووقتما تتحوّل عبادته اللاشعوريّة إلى عبادة شعوريّة واعية، فستصبح كلّ أعماله وسلوكيّاته ذات صبغة أخلاقيّة، بلا فرق بين عمل وآخر، حتّى أكله ونومه، هذا إذا جعل رضا الله منطلقًا لعمله ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣٤].

---

(٣٢) سورة **المائدة**، الآية ٨٣.

(٣٣) **فلسفة الأخلاق**، مصدر سابق، الصفحة ٩٧.

(٣٤) سورة الأنعام، الآية ١٦٢.



وهذه النظريّات إجمالًا كان لها تأثيرها في فهم الموضوع الأخلاقيّ عند علماء الأخلاق المسلمين، إلّا أنّ النظريّتين اللتين أخذتا اهتمامًا واسعًا فكانتا:

النظريّة الأولى، نظريّة الاعتدال أو التوسُّط بين الإفراط والتفريط ففضيلة الشجاعة مثلًا هي وسط بين إفراط هو التهوُّر، وتفريط هو الجبن.

وقد نادى بهذه النظريّة أرسطو اليونانيّ، ثمّ تأثّر بها جملةٌ من علماء المسلمين، نذكر منهم على سبيل المثال «مسكويه» (ت١٢٤هـ) في كتابه **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.**

وهو يقول بهذا الشأن: «إنّ كلّ فضيلة هي وسط بين رذائل» ثـمّ يقـول: «إذا انحـرفت

الفضيلة عن موضعها الخاصّ بها أدنى انحراف، قربت من رذيلة أخرى ولم

تسلم من العيب بحسب قربها من تلك الرذيلة التي تميل إليها. ولهذا صَعُب جدًّا وجود هذا الطرف، ثمّ التمسُّك به بعد وجوده أصعب [...] وذلك أنّ الأطراف التي تُسمّى رذائل من الأفعال والأحوال والزمان وسائر الجهات كثيرة جدًّا. ولذلك دواعي الشرّ أكثر من دواعي الخير، ويجب أن يطلب أوساط تلك الأطراف بحسب إنسان إنسان»[٣٥].

ولمّا كانت أمّهات الفضائل عنده أربعة هي:

أ. الحكمة وهي «فضيلة النفس الناطقة المميّزة، وهي أن تعلم الموجودات كلّها من حيث هي موجودة، ويثمر علمها أن تعرف المعقولات أيّها يجب أن يُفعل وأيُّها يجب أن يُغفل».

ب. العفّة وهي «فضيلة الحسّ الشهوائيّ».

ج. الشجاعة وهي «فضيلة النفس الغضبيّة».

د. العدالة وهي «فضيلةٌ للنفس تحدث لها من اجتماع هذه الفضائل الثلاث التي عدّدناها، وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض واستسلامها للقوّة المميّزة»[٣٦].

فإنّ هذه القوى بحسب مسكويه - هي فاضلة لأنّها وسطيّة، أمّا إذا ابتعدت عن وسطيّتها فتتحوّل إلى رذائل. فالحكمة وسطيّة بين السفه - الجربزة- والبله؛ والعفّة وسط بين رذيلتَي الشره وخمود الشهوة؛ والشجاعة وسط بين رذيلتَي الجبن والتهوّر؛ والعدالة وسط بين الظلم والإنظلام.

ويعتبر الالتزام بالوسطيّة هو الطريق لجلب السعادة واللذّة التي لا يكدّرها شيء، والسعيد هو الذي لا يزول صبره بحدوث المصائب، ولا شكرُه بورود النوائب، ولا يقينُه بكثرة الشبهات، وهذا الثبات على الوسطيّة إنّما كان لصيرورة الأخلاق الفاضلة ملكات راسخة لا تتغيّر بحسب ظاهرها وباطنها.

إلّا أنّ ثباتها ليس ثباتًا ذاتيًّا تكوينيًّا، وإلّا لما أمكن أن يكون للأخلاق أيّ

---

(٣٥) المصدر نفسه، الصفحة ٤٦.

(٣٦) **فلسفة الأخلاق**، مصدر سابق، الصفحة ٤٠.

نفع تربويّ أو تهذيبيّ، بل المقصود أنّها إذا استقرّت واطمأنّت بها النفس ثبتت وقويت.

وقد توجّهت لهذا الاتّجاه النظريّ في المبنى الأخلاقيّ، على أهمّيّته وسعة انتشاره، جملة من الملاحظات منها:

أوّلا: إنّ «فكرة الوسط، فكرة غامضة جدًّا في مذهب أرسطو، لأنّها تثير كثيرًا من المشاكل من ناحية، ولا يمكن تطبيقها في كلّ الأحوال من ناحية أخرى. فهي تثير مشاكل أوّلًا فيما يتعلّق بطبيعة هذا الوسط. فمن الملاحظ دائمًا أنّ الوسط يُنظر إليه باعتباره هو الآخر نقصًا بالنسبة إلى الطرف المفرط، كما يعتبر إفراطًا إذا نُظر إليه بالنسبة إلى الطرف المفرّط فكيف يتحقّق هذا إذن؟ أي كيف يتهيّأ له أن يجمع بين هاتين الصفتين؟ وكيف يمكن أن يكون الفضيلة على الرغم ممّا فيه من تعارض، خصوصًا إذا لاحظنا أنّ المتضادّين هما – كما يعرّفهما أرسطو في المنطق- الطرفان اللذان بينهما غاية الخلاف؟ وكيف يمكن إذا نظرنا إلى الوسط نظرة رياضيّة، أن يكون أعلى درجة من هذين الطرفين؟»[٣٧].

ثانيًا: هذا من ناحية تحليل جوهر الوسط. أمّا من ناحية تعيين هذا الوسط، فالمشكلة أشدّ عُسرًا، ذلك لأنّنا نجد أنّه لا يمكن أن يُتحدّث عن وسط في الأشياء التي هي شرٌّ بذاتها. فالزنا، مثلًا، أو الفحش أو السرقة وغيرها، لا يمكن أن نتحدّث فيها عن وسط مطلقًا، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأشياء التي هي خير بذاتها، مثل النظر العقليّ الصرف»[٣٨].

وفي تقديرنا أنّ هاتين الملاحظتين يمكن مناقشتهما وطرح ردود عليهما، إذ إنّ إثارة أيّ فكرة للمشكلات، لا يعني عدم وضوحها، ومقايسة الوسط، «بالنسبة» إلى الطرفين، هو اعتماد لدليل يختلف مبنائيًّا عن طبيعة روح البرهان والدليل الذي يعتمده أرسطو، والذي يقوم على النظرة الثابتة والجوهريّة للأمور، أمّا مفهوم النسبة فهو مبنيٌّ على توجّه نظريّ مختلف.

---

(٣٧) بدوي، **أرسطو** (بيروت: دار القلم)، الصفحتان ٢٦٠-٢٦١.

(٣٨) المصدر نفسه.

ثمّ إنّ العلاقة المتباينة بين الوسط والطرفين ليست من باب التضادّ، لأنّ الرذيلة ليست أمرًا وجوديًّا، بل هي عدم ونقيصة للوجود الواحد الذي هو «الخير أو الفضيلة» والذي لا يكون إلّا في الوسط.

أمّا ما ذُكر عن مشكلة تعيين الوسط في أمور كالزنا والسرقة فهو واضح، إذ الوسط هو الزواج المحفوف بطرفَي الزنا والرهبنة، أمّا السرقة فوسطها تحصيل الرزق بالكدّ والسعي المحفوف بطرفَي البطر أو السرقة والخديعة، والحال هو عينه في مثال النظر العقليّ المحفوف بالجربزة والبلاهة.

هذا، ولا يمكن لنا إلّا الإشارة إلى أنّ الحكم على المفهوم الأخلاقيّ يختلف في كثير من جوانبه عن المعقولات الأولى وعن المقولات المنطقيّة والرياضيّة.

ثالثًا: ذهب البعض إلى تفسير يختلف في مبناه الأخلاقيّ عن مبنى المشهور من علماء الأخلاق، القائلين بالحدّ الوسط. اعتبر هؤلاء أنّ النفس بتعاليها تحصّل الفضائل وبتسافلها تحصّل الرذائل، وأنّه لا حدّ وسط بين الأمرين عند النفس، وهو تحليل يخالف أصحاب الاتّجاه الأوّل في البعد المبنائيّ أكثر ممّا هو نقد لمباني ذاك الاتّجاه.

رابعًا: إنّ طريقة الدراسة لهذا النحو من الأخلاق تعتمد على توضيح المفاهيم باعتبارها فضائل على الإنسان أن يزيّن نفسه بها، وهي مفاهيم سكونيّة لا حراك فيها بعد أن تثبت، كما وأنّها لا تنطوي على منظومة منسّقة مرتّبة وبذلك فإنّها ستوجِد شخصيّة ساكنة محدودة الفعاليّة.

وبظنّي، فإنّ هذه الملاحظة هي أكثر ملاحظة تثير الاهتمام، لأنّها، وإن لم تنفِ أهمّيّة التفسير الوسطيّ لعلم الأخلاق، إلّا أنّها اعتبرته تفسيرًا ذا منحى فلسفيٍّ مفاهيميّ من جهة، ولا يؤسّس لنسقيّة معرفيّة لعلم الأخلاق من جهة أخرى، كما أنّه لا يصل في تكامل الإنسان حدّ الغاية من لقاء الله سبحانه الذي يتحرّك بالوصول في بحر من الحركة لا حدّ له.

النظرية الثانية: وهي التي تبنّاها العرفاء من علماء الأخلاق، والتي استمدّوها من روح القرآن والسُنّة المطَهّرة الشريفة، كما ومن العقل الفطريّ.

وقد استعرض الخواجة نصير الدين الطوسي – قدّس سرّه - في مقدّمة

مُصَنّفه أوصاف الأشراف هذا الاتّجاه بالقول:

لا ريب أنّ من نظر في وجوده وأحواله... علم أنّه محتاج إلى غيره، وكلّ محتاج إلى غيره فهو ناقص في نفسه، وإذا علم نقصان نفسه انبعث في باطنة شوق إلى كماله يدعوه إلى طلبه، فيحتاج في ذلك الطلب إلى حركة تُسمّيها أهل الطريقة السلوك. وكلّ من رغب في هذه الحركة يلزمه ستّة أشياء:

- بداية الحركة، وما لا بدّ منه للحركة منها بمنزلة الزاد والراحلة في الحركة الظاهرة.
- إزالة العوائق وقطع الموانع عن تلك الحركة.
- الحركة التي بها يصل من المبدأ إلى المقصد، ويُسمّى بالسير والسلوك وأحوال السالك في تلك الحال.
- الأحوال التي تمرّ به في أثناء سلوكه من مبدئه إلى مقصده.
- الأحوال التي تسنح إلى الواصل بعد سلوكه.
- حالة نهاية الحركة، وانقطاع السلوك الذي يُسمّى في هذا الموضع الفناء في التوحيد، وينبغي أن يعلم أنّه كما أنّ كلّ جزء من الحركة غير الجزء الأوّل، والآخر مسبوق بجزء منها ومستعقب لجزء، كذلك كلّ حال من أحوال السالك واسطة بين فقدان سابق وفراق لاحق.. في حال فقدان السابق كانت تلك الحال مطلوبة، وفي حال الفراق مهروبًا عنها. فحصول كلّ بقياسه إلى ما تقدّم كمال وحال التوجّه إليه مطلوب، وإليه الإشارة بقولهم: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين[٣٩].

وهكذا نلحظ من سياق هذا المقطع جملة أمور منها:

أوّلًا، إنّ التخلُّق حركة للنفس لها مبدأ كما ولها مقصد وأنّ هذه الحركة تكامليّة لا تنقطع ولا تسكن.

ثانيًا، إنّ حركة التخلُّق قائمة على معرفة مبنيّة على اليقظة والفطنة، كما وهي تقوم على طلب نابع من وجود الإنسان نحو سدّ النقص وتحصيل الكمال.

---

(٣٩) نصير الدين الطوسي، **أوصاف الأشراف** (بيروت: مركز نون للتأليف والترجمة، الطبعة ١، ٢٠١١م)، الصفحتان ١٢ و١٣.

ثالثًا: إنّ إزالة العوائق، والتي هي رذائل النفس ومعاصي الفعل، شرط ضروريّ لتحصيل الكمال.

رابعًا: إن التزوّد بالفضائل، والالتزام بالضوابط الشرعيّة هي السبيل نحو الوصول للمقصد.

خامسًا: إنّ الهدف هو الفناء بالتوحيد، وبمثل هذا الفناء ينال السالك هدف بقائه بالله سبحانه إذ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [٤٠].

وعليه، فإنّ هذه النظريّة الأخلاقيّة تحمل كلّ مقوّمات المذهب الأخلاقيّ الحامل للعناصر النظريّة والعمليّة – الأخلاقيّة. وهي نظريّة تقوم على صياغة منهجيّة متماسكة قوامها حركة الكيان الإنسانيّ نحو التكامل بالمبدأ الذي منه صدرت، وبالمقصد الذي هو عين المبدأ والذي إليه تؤول.

ومن خصائص هذا المذهب الأخلاقيّ:

أوّلًا: إنطلاقه من نظرة ورؤية توحيديّة كاملة للوجود والحياة. فكلّ حركة الإنسان في هذا المذهب الأخلاقيّ عنوانها التوحيد الخالص، وكلّ نظرة إلى غير الله سبحانه بشكل بعيد عن التوحيد هو شرك وبُعد عن الله سبحانه، وهنا تكمن الرذيلة والمعصية.

ثانيًا: إنّ حركة التوحيد الخالص تتمّ عبر عمليّة أخلاقيّة يُطلق عليها اسم «الطريقة»؛ والسير والسلوك إنّما يكونان على نهج الطريقة التي سنّتها الشريعة السمحاء لتصفية النفس. من هنا، يتمّ تحديد المراحل التي على الإنسان أن يطويها بيقظة وفطنة ووعي ومجاهدة للوصول إلى قمّة المقصود وهو التوحيد الخالص.

ثالثًا: إنّ شرط السير السليم والصائب هو التقيُّد بالأحكام الإلهيّة والتأسّي بسيرة المعصوم وتوجيهات أهل الذكر من الفقهاء والعلماء، وأيّ انحراف عن هذه القيود هو انحراف عن الطريق.

رابعًا: كما أنّ للعقل دور في الفهم والمعرفة النيّرة، كذلك فإنّ للقلب والنفس دورهما الكبير في التهذيب والتصفية والتحلّي بالكمالات الأخلاقيّة المطلوبة،

---

(٤٠) سورة **القصص**، الآية ٨٨.

وتسمّى الفضيلة.

خامسًا: التدبُّر والتذكُّر الدائم في العالم والإنسان والله والعلاقة التي يجب أن تكون على أساس الفقر إلى الله سبحانه وحده.

سادسًا: إنّ التخلُّق في هذا المذهب هو حركة دائمة لا تستقرُّ عند حدٍّ محدود ومفهوم مُقيّد، كما هو الحال في نظريّة الاعتدال والوسط الأخلاقيّ، وكلّ هذه الحركة إنّما تقوم على الصراط ابتداءً وانتهاءً.

سابعًا: الإيمان بأنّ منبع فضائل الأخلاق إنّما يكمن في فطرة الإنسان ووجدانه، وبأنّ النفس قادرة على درك هذه الأخلاق دونما حاجة للتعلُّم، وهذا ما تضافرت عليه الآيات: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[41]. إلّا أنّ شرط إدراك هذه الفضائل الفطريّة هو كشف الغطاء عنها وترك الغفلة وإزالة صدأ القلب الناشىء من الرذائل.

ثامنًا: استيعاب الكثير من أسس نظريّة الاعتدال ووضعها في إطار الأخلاق النظريّة للتدقيق في دلالات ومعاني المفاهيم الأخلاقيّة، وتجاوز ذلك بالسير والسلوك العمليّ في الأخلاق العمليّة.

تاسعًا: التفريق بين الأخلاق وهي من الفطريّات وهي حقائق واقعيّة لا تبديل فيها، إذ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله﴾[42] وبين الأخلاقيّات التي يتمُّ فيها التبدّل بسبب الزمان والمكان وتحديد الأولويّات، ومن هنا هي تكون نسبيّة.

عاشرًا: الإيمان بأنّ الأخلاق، وإن كانت من أشرف الأمور المطلوبة، فإنّنا نطلبها كطريق للوصول إلى مقام العبوديّة، والفناء عن الذات، بالله سبحانه وتعالى.

الحادية عشر: الأخلاق هي السبيل لتحقيق إرادة وعزم كبيرين على ترك المحرّمات، وليصير المرء إنسانًا حقيقيًّا قابلًا لملاقاة ربّه.

كما أنّ واحدًا من أهمّ خصائص هذا المنهج فتحُ النفس الإنسانيّة على المعرفة التوحيديّة عبر الالتزام الكلّيّ بالدين وتشريعاته. لذا يقول الإمام

(٤١) سورة **الشمس**، الآيتان ٧ و ٨.

(٤٢) سورة **الروم**، الآية ٣٠.

الخمينيّ، قدّس سرّه:

إنّ نشر التوحيد والمعارف الحكميّة الإلهيّة، وقطع جذور الكفر والشرك وعبادة إلهين اثنين، وسرّ التوحيد والتجريد سار وجارٍ في جميع العبادات القلبيّة والقالبيّة، بل كان يقول الشيخ العارف الكامل الشاه آبادي، روحي فداه: «إنّ العبادات إجراء التوحيد من باطن القلب إلى ملك البدن»[٤٣]. وبالجملة، فالنتيجة المطلوبة من العبادات هي تحصيل المعارف وتمكين التوحيد وسائر المعارف في القلب، وهذا المقصد لا يحصل إلّا بأن يستوفي السالك الحظوظ القلبيّة للعبادات، ويعبر من الصورة والقالب إلى الحقيقة واللبّ[٤٤].

أخيرًا، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه النظريّات التي أوردناها لا يستقيم أمرها – ولا نصل إلى غايات ثمارها، إلّا بفعليّة التخلُّق بالأخلاق وانعكاس ذلك في السلوكيّات الأخلاقيّة، ولنصل إلى هذه المرحلة فلا بدّ من معرفة النفس، إذ «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»، بل ومجاهدة هذه النفس مجاهدة تخرجها من الظلمات إلى النور بإذن ربّها، وهو المُسمّى بالجهاد الأكبر.

وقبل أن ندخل في مبحث الجهاد علينا أن نحدّد ما هو المعيار الأخلاقيّ المعتمَد في الإسلام والذي علينا التربّي بموجبه.

تقويم

١- قارن بين «نظريّة الوسط» و«نظريّة العرفاء».

٢- عدّد خصائص المذهب الأخلاقيّ عند العرفاء مبيّنًا دلالاتها.

هـ- المعيار الأخلاقيّ

بعد أن توضّح لدينا امتياز ملاك الفعل الأخلاقيّ بالسمة العباديّة في النظرة الإسلاميّة، وأنّ المسلك الذي تبنّته النظرة الإسلاميّة للأخلاق، يقوم على الارتباط السلوكيّ بالآخرة، ويتمسّك بالآخرة، وبالتوحيد كرؤية ناظمة للنسق

---

(٤٣) سورة **الروم**، الآية ٣٠.

(٤٤) الإمام الخمينيّ قدّس سرّه، **الآداب المعنويّة للصلاة**، ترجمة السيد أحمد الفهري (قم: دار الكتاب الإسلاميّ)، الصفحتان ٢٨٣ و ٢٨٤.

والنظام الأخلاقيّ. هذا، ويشكّل المعيار الأخلاقيّ الأصل الحاكم على النظام الأخلاقيّ.

وهذا المعيار ينبغي أن يمتاز بجملة مواصفات منها:

أ. إنّه الأصل الذي تنبع منه، أو تتشاكل معه مجالات ومرتكزات سلّم النظام الأخلاقيّ.

ب. إنّه الجامع والموحِّد لمسائل وقضايا الاتّجاه الأخلاقيّ.

ج. إمكانيّة إعادة كلّ مجال، أو مرتكز، أو قضيّة، أو مسألة أخلاقيّة إليه، لتأخذ كلّ وجهة معناها ودلالتها منه.

وبهذا المعنى، فإنّنا نجد أنّ الحقل الأكثر خصوبة للبحث عن مثل هذا المعيار يقع في دراسة ومعرفة «عالم الصفات والأسماء الإلهيّة» ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[٤٥].

والدعوى هي نزعة، ونزوع للطلب الإنسانيّ، بلقاء الله والتقرّب إليه، وشرط أيّ لقاء أو تقرّب، إنّما يتمثّل بالتشبّه أو العمل على المجانسة، أو تأمين الاستعداد اللازم لاستقبال مثل هذا التلاقي، وهو الذي أطلق القرآن عليه اسم «التطهّر» ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾[٤٦]. وشرط التطهّر الخُلوص من الرجس ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[٤٧]. وهكذا تصحّ الدعوة «تخلّقوا بأخلاق الله»[٤٨] ليتربّى الإنسان بالأسماء والصفات، أي بالخُلق الإلهيّ. وبهذا المعنى تأخذ الأخلاق بُعدًا أنطولوجيًّا يسري في الموجودات كباطن ينعكس بالظاهر، وكأوّل وآخر.. ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾[٤٩].

ولعلّ اسم «القيّوم» هو من أكثر الأسماء السامية والسارية سريان إحاطة وتحقيق بالموجودات، وللموجودات، بحيث يصحّ اعتباره سرّ خلود الأخلاق، وسرّ

(٤٥) سورة **الإسراء**، الآية ١١٠.

(٤٦) سورة **الواقعة**، الآية ٧٩.

(٤٧) سورة **الأحزاب**، الآية ٣٣.

(٤٨) **بحار الأنوار**، الجزء ٥٨، الصفحة ١٢٩.

(٤٩) سورة **الحديد**، الآية ٣.

خلود المتخلّقين بالأخلاق السامية ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ.... ﴾[٥٠] والقيّوم هنا «على ما قيل: وصف يدلّ على المبالغة، والقايم هو حفظ الشيء، وفعله، وتدبيره، وتربيته، والمراقبة له، والقدرة عليه، فأفاد أنّه قائم على الموجودات بالعدل، فلا يعطي ولا يمنع شيئًا في الوجود إلّا بالعدل بإعطاء كلّ شيء ما يستحقّه، ثمّ يبيّن أنّ هذا القايم بالعدل مقتضى اسميه الكريمين العزيز الحكيم، فبعزّته يقوم على كلّ شيء وبحكمته يعدل فيه...»[٥١]، وذلك لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥٢]. وقد حملت لفظة القوّام معنى العدل ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[٥٣] استقامة.

وقوام الأمر نظامه وعماده. الدين القيّم: أي المستقيم الذي لا زيغ فيه، ولا ميل عن الحقّ. والقيّم: السيّد وسائس الأمر. القيّوم والقيّام المدبّر، من أسماء الله الحسنى. القيّوم: القائم على كلّ شيء. والقوام من العيش، ما يقيمك، وقوام العيش عماده، وقوام كلّ شيء ما استقام به[٥٤].

فدلالات هذه المفردات تتركّز على الاستقامة والعدل والحقّ. وتتوسّع لتترابط مع الحكمة والعزّة، وغيرهما من المفاهيم الأخلاقيّة، ممتدّة من بُعد وجوديّ وقِيَميٍّ ينطلق من اسم الله القيّوم باعتباره «أمّ الأسماء الإضافيّة الثابتة له تعالى جميعًا. وهي الأسماء التي تدلّ على معانٍ خارجة عن الذات بوجه، كالخالق والرازق والمبدئ والمعيد والمحيي والمميت والغفور والرحيم والودود وغيرها[٥٥]...

(٥٠) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٥.

(٥١) الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، (بيروت: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٩٩٧م)، الصفحة ٣٣٥.

(٥٢) سورة آل **عمران**، الآية ١٨.

(٥٣) سورة **الفرقان**، الآية ٦٧.

(٥٤) الجابري، **تكوين العقل الأخلاقي**، الصفحة ٥٤.

(٥٥) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الصفحة ٣٣٥.

تقويم

١- حلّل بالتفصيل القول التالي: «يشكّل المعيار الأخلاقيّ الأصل الحاكم على النظام الأخلاقيّ».

كما وتمرّ الأبعاد الأخلاقيّة ومفاهيمها، كالعدل والاستقامة، وبالدين القيِّم وبما يقيِّم العيش ويعتمد عليه، وبمراجعة لبعض الآيات القرآنيّة، يمكن ملاحظة بعض تأثيرات هذا المعيار المرتكز والتي منها:

١. على صعيد النظرة للوجود كقيمة ترتبط بالله ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُو الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥٦].

٢. على صعيد النظرة لعالم الآخرة ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٥٧]. فبما أنّ كلّ موازين الآخرة هي موازين القسط الإلهيّ سمّيت بيوم القيامة.

٣. سرّ حركة الرسالات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٥٨].

٤. وهي سرّ، وعمق دور أي رسول ﴿فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[٥٩].

٥. وهي وظيفة وتكليف كلّ مؤمن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ﴾[٦٠].

٦. وعلى أساسها يكون حسابهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾[٦١].

٧. وهي قاعدة معائشهم ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾[٦٢].

---

(٥٦) سورة **آل عمران**، الآية ١٨.

(٥٧) سورة **الأنبياء**، الآية ٤٧.

(٥٨) سورة **الحديد**، الآية ٢٥.

(٥٩) سورة **يونس**، الآية ٤٧.

(٦٠) سورة **المائدة**، الآية ٨.

(٦١) سورة **يونس**، الآية ٤.

(٦٢) سورة **هود**، الآية ٨٥.

٨. وهي وجهة ومحجّة شعائرهم ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ (٦٣).

٩. وهي قاعدة كلّ حركتهم ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٦٤).

١٠. وعليها كلّ دينهم ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (٦٥).

إنّ كلّ تلك الأسس والقيم القائمة على القيوميّة المولِّدة لفعل القيام الإنسانيّ بالله ولله، لا بدَّ أن تنتج الوجهة الأخلاقيّة والتربويّة للإنسان وهي: الهداية القائمة على اتّجاه سير وسلوك وقيام لله سبحانه. وهذا الاتّجاه منبعه القيم القرآنيّة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٦٦)، وطريقه هي التي أطلق عليها القرآن الكريم اسم الصراط المستقيم.

من مواصفات هذا الصراط

أ- إنّه الهداية الإلهيّة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ (٦٧).

ب- إنّه غاية حركة كلّ متوجّه إلى الله ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦٨).

ج- إنّه حصن الله المانع من الرجس والسوء ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٩).

د- وهو سرّ الاجتباء الإلهيّ للناس ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٠).

هـ- وإنّ أيّ حياد عن الصراط هو صدٌّ عن سبيل الله ﴿وَلَا تَقْعُدُوا

---

(٦٣) سورة **المائدة**، الآية ٩٧.

(٦٤) سورة **آل عمران**، الآية ١٩١.

(٦٥) سورة **يوسف**، الآية ٤٠.

(٦٦) سورة **الإسراء**، الآية ٩.

(٦٧) سورة **الأنعام**، الآية ١٦١.

(٦٨) سورة **الحمد**، الآية ٦.

(٦٩) سورة **آل عمران**، الآية ١٠١.

(٧٠) سورة **الأنعام**، الآية ٨٧.

بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[٧١]. واعتباره صدٌّ عن سبيل الله، لأنّ الله بحسب القرآن قيّوم الصراط المستقيم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٧٢].

فمَن كان يريد لقاء الله والتقرّب إليه، فعليه أن يكون على صراطه سبحانه، وهذا لا يكون إلّا بالشكر لأنعم الله سبحانه ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ ولمعرفة معنى الشكر لأنعم الله، فقد تناول القرآن وجهة من هم ضدّ أو نقيض هذا القعود على الصراط المستقيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾[٧٣]. بل عدم الاستناد إلى الصراط هو محلّ قعود الشيطان ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٧٤].

فإذا كانت القيوميَّة سرت إلى لقاء صراط الله والدين وقيام الإنسان بذاته وأخلاقيّاته وسلوكه وقوله لله سبحانه، فإنّ هذا القيام سيؤثّر في فعل المتلقّي له توجّهًا نحو ربّه ليتخلّق بأخلاقه سبحانه، وهنا تقع موضوعة الجهاد الذي يمكن تقسيمه إلى أقسام ثلاثة: الجهاد الأكبر وهو مغالبة النفس للتخلّق بأخلاق الله، وتكوين صورة أنفسيّة على مقتضى حكم الشرع والعقل، والجهاد الأصغر، وهو مغالبة العدوّ الخارجيّ لفتح سبل الوصول الاجتماعيّ والسياسيّ إلى الله سبحانه؛ والجهاد الأعظم وهو مواجهة العدوّ في محضر جبروته بكلمة حقّ تدحض فرضيّة تسلّطه، إذ لا سلطان إلّا لله، فالله هو الأكبر دومًا، يقول الرسول الأكرم محمّد، صلّى الله عليه وآله: «أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[٧٥].

والجهاد من بذل الجهد «والجَهد والجُهد: الطاقة والمشقّة، وقيل: الجُهد

(٧١) سورة **الأعراف**، الآية ٨٦.

(٧٢) سورة **هود**، الآية ٥٦.

(٧٣) سورة **المؤمنون**، الآية ٧٤.

(٧٤) سورة **الأعراف**، آية ١٦.

(٧٥) الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، (بيروت: دار الفكر، الطبعة١، ١٩٨٣م)، الجزء ٣، الصفحة ٣١٩.

للإنسان[٧٦]. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَ جُهْدَهُم﴾[٧٧]. وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[٧٨]؛ أي: حلفوا واجتهدوا في الحلق أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم. والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمُّل المشقة، يقال: جهدتُ رأيي. وأجهدته: أتعبته بالفكر، والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدوّ، والجهاد ثلاثة أضرب:

- مجاهدة العدوّ الظاهر.
- ومجاهدة الشيطان.
- ومجاهدة النفس.

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِه﴾[٧٩].

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[٨٠]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾[٨١]»[٨٢].

وبالتالي، فإنّ ما سيواجهه المرء في طريق وصوله إلى ربّه وتمكُّنه من الصراط، يتطلّب التمسُّك بقيمة نفسيّة وسلوكيّة وقوليّة، هي الجهاد والاجتهاد فيه، ومقتضى مثل هذا الاجتهاد الأخلاقيّ مراعاة الكثير من ثنائيّات وثلاثيّات قيميّة وأخلاقيّة متباينة أحيانًا للوصول نحو الحقّ والخير والعدل والفضيلة والحرّيّة والسلام، بقيام جهاديّ لله يعني، في مضمونه، بناء الأخلاقيّات والقيم الإسلاميّة على أسس أربعة:

الأساس الأوّل: الحفاظ على المُثُل الإلهيّة السامية، وحفظ ومراعاة قيوميّتها على كلّ جهد إنسانيّ.

الأساس الثاني: مراعاة شؤون تفاصيل الحياة بتطوُّراتها ومستجدّاتها

---

(٧٦) الأصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن الكريم** (الشام: دار القلم،١٩٩٦م)، مادة جهد.

(٧٧) سورة **التوبة**، الآية ٧٩.

(٧٨) سورة **النحل**، الآية ٣٨، وسورة **النور**، الآية ٥٣.

(٧٩) سورة **الحج**، الآية ٧٨.

(٨٠) سورة **التوبة**، الآية ٤١.

(٨١) سورة **الأنفال**، الآية ٧٢.

(٨٢) **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، مصدر سابق، الصفحة ٢٠٨.

التي تؤثّر في تأسيس أو توظيف أنظمة القيم مرعيّة الإجراء، والتي تراعي المضمون القيوميّ، والقيام بمستلزماته التي تعني أنّ الأخلاق والقيم الإسلاميّة هي قيم حياته لبناء سجايا أخلاقيّة، وسمات روابط تداوليّة اجتماعيّة وسياسيّة تؤسّس لحياة الأرض، كمزرعة تؤسّس لسجايا وروابط الآخرة.

الأساس الثالث: الاجتهاد في تكوين نظام قيميٍّ متجدّد محفوظ على الدوام بسموّ المثل التي ينتمي إليها ليُشَكِّل هويّته البيِّنة في مضامينها، والمتشكّلة بحيثيّات مسالكها، ومعالمها، وأشكالها، والتي تتقاطع مع الرؤية الكونيّة والنظرة الفقهيّة، لتؤثّر فيها بمقدار ما تتأثّر بها، ولتتحوّل هذه القيم الفرعيّة إلى أصول أخلاقيّة، فإنّ عليها توسيط نظام حقوقيّ عبَّر عنه الإمام زين العابدين، عليه السلام، في رسالته **رسالة الحقوق** والتي انطلق فيها من حقّ الله ليفرِّع منه حقوق النفس والجوارح والمجتمع والعبادات وغيرها، إذ يقول عليه السلام:

«اعلم، رحمك الله، أنّ لله عليك حقوقًا محيطةً بك في كلّ حركة تحرّكتها، أو سَكَنَة سَكَنتها أو منزلة نزلتها، أو جارية قلّبتها وآلة تصرَّفت بها، بعضها أكبر من بعض، وأكبر حقوق الله عليك ما أوجبه لنفسه تبارك وتعالى من حقّه الذي هو أصل الحقوق ومنه تفرَّعَ، ثمّ أوجبه عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك»[٨٣].

الأساس الرابع: هو بناء منهج تربويّ يرتكز على المعيار القِيميّ النهائيّ المراعي للأسس الثلاثة السالفة؛ يُبنى على جملة من القيم التي تنقسم إلى مكوّنات النموّ والتطوّر في الشخصيّة.

وهذه المكوّنات هي:

أ- المكوّن المعرفيّ الذي يمثّل حركة العقل فيما يختار من أفكار وقناعات وتصوّرات ومفاهيم ورؤى.

ب- المكوّن السلوكيّ ويتعلّق بتطوير الخبرات والأداء والالتزامات العمليّة

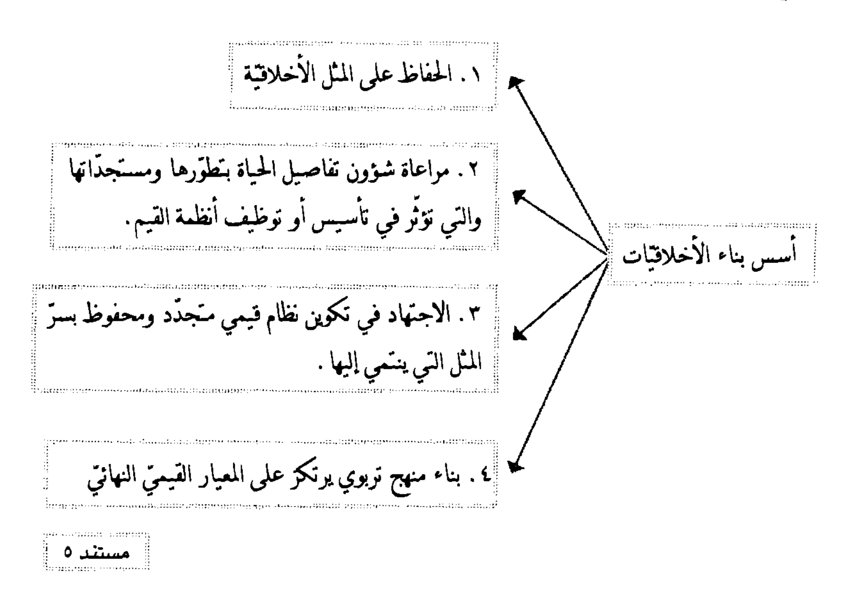
---

(٨٣) الإمام زين العابدين، عليه السلام، **رسالة الحقوق**، تحقيق عبّاس علي الموسوي، (بيروت: دار المرتضى، الطبعة ٥، ١٩٩٣م).

لحركته وتواصله مع الحياة وأبناء الحياة.

ج- المكوِّن المعنويّ وهو ما يرتبط بالمثل الأعلى الذي يختاره الإنسان، وهذا المثال، إن كان ساميًا، فإنّه يعطي المكوِّن المعرفيّ في قيمًا سامية، وإن كان متدنّيًا، فإنّه، بلا شكّ، سينحطّ في قيمة معارفنا.

بل إنّه، وبحسب هذا المثال المحدِّد للمكوّن المعنويّ، ستختلف صيغ ومضامين برامجنا وحركتنا السلوكيّة لجهة تشخيص المشكلات، أو لجهة كيفيّة المعالجة التي نلتزمها في حلولنا ومقترحاتنا.



مستند ٥

تقويم

١- عدّد أسس بناء الأخلاقيّات، محلّلًا لها بالتفصيل.

للمطالعة والنقاش
(بحث أخلاقيّ)

علم الأخلاق هو الفنّ الباحث عن الملكات الإنسانيّة المتعلّقة بقواه النباتيّة والحيوانيّة والإنسانيّة، وتميّز الفضائل منها من الرذائل ليستكمل الإنسان بالتحلّي والاتّصاف بها سعادته العلميّة، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنسانيّ.

وهو أيضًا يظفر ببحثه أنّ الأخلاق الإنسانيّة تنتهي إلى قوى عامّة ثلاثة فيه، هي الباعثة للنفس على اتّخاذ العلوم العمليّة التي تستند وتنتهي إليها أفعال النوع وتهيئتها وتعبئتها عنده، وهي القوى الثلاث: الشهويّة والغضبيّة والنطقيّة الفكريّة، فإنّ جميع الأعمال والأفعال الصادرة عن الإنسان إمّا من قبيل الأفعال المنسوبة إلى جلب المنفعة كالأكل والشرب واللبس وغيرها، وإمّا من الأفعال المنسوبة إلى دفع المضرّة كدفاع الإنسان عن نفسه وعرضه وماله ونحو ذلك. وهذه الأفعال هي الصادرة عن المبدأ الغضبيّ كما أنّ القسم السابق عليها صادرٌ عن المبدأ الشهويّ؛ إمّا من الأعمال المنسوبة إلى التصوّر والتصديق الفكريّ، كتأليف القياس وإقامة الحجّة وغير ذلك. وهذه الأفعال صادرة عن القوّة النطقيّة الفكريّة، ولمّا كانت ذات الإنسان كالمؤلّفة المركّبة من هذه القوى الثلاث التي باتّحادها وحصول الوحدة التركيبيّة منها يصدر أفعال خاصّة نوعيّة، ويبلغ الإنسان سعادته التي من أجلها جعل هذا التركيب، فمن هذا الواجب لهذا النوع أن لا يدع قوّة من هذه القوى الثلاث تسلك مسلك الإفراط أو التفريط، وتميل عن حاق الوسط إلى طرفي الزيادة والنقيصة، فإنّ في ذلك خروج جزء المركّب عن المقدار المأخوذ منه في جعل أصل التركيب، وفي ذلك خروج المركّب عن كونه ذاك المركّب ولازمه بطلان غاية التركيب التي هي سعادة النوع.

وحدّ الاعتدال في القوّة الشهويّة – وهي استعمالها على ما ينبغي كمًّا وكيفًا – يسمّى عفّة، والجانبان في الإفراط والتفريط الشره والخمود. وحدّ الاعتدال في القوّة الغضبيّة هي الشجاعة، والجانبان التهوّر والجبن. أمّا حدّ الاعتدال في القوّة الفكريّة تسمّى حكمة، والجانبان الجربزة والبلادة. وتحصل في النفس

من اجتماع هذه الملكات ملكة رابعة هي كالمزاج من الممتزج، وهي التي تسمّى عدالة، وهي إعطاء كلّ ذي حقّ من القوى حقّه، ووضعه في موضعه الذي ينبغي له، والجانبان فيها الظلم والانظلام.

فهذه أصول الأخلاق الفاضلة أعني: العفّة والشجاعة والحكمة والعدالة، ولكلّ منها فروع ناشئة منها راجعة بحسب التحليل إليها، نسبتها إلى الأصول المذكورة كنسبة النوع إلى الجنس، كالجود والسخاء، والقناعة والشكر، والصبر والشهامة، والجرأة والحياء، والغيرة والنصيحة، والكرامة والتواضع، وغيرها؛ هي فروع الأخلاق الفاضلة المضبوطة في كتب الأخلاق - وهاك شجرة أدناه تبيّن أصولها وتفرّع فروعها-.

وعلم الأخلاق يبيّن حدّ كلّ واحد منها ويميّزها من جانبيها في الإفراط والتفريط، ثمّ يبيّن أنّها حسنة جميلة ثمّ يشير إلى كيفيّة اتّخاذها ملكة في النفس من طريقي العلم والعمل أعني الإذعان بأنّها حسنة جميلة، وتكرار العمل بها حتّى تصير هيئة راسخة في النفس.

مثاله أن يقال: إنّ الجبن إنّما يحصل من تمكّن الخوف من النفس، والخوف إنّما يكون من أمر ممكن الوقوع وعدم الوقوع، والمساوي الطرفين يقبح ترجيح أحد طرفيه على الآخر من غير مرجّح، والإنسان العاقل لا ينبغي له ذلك فلا ينبغي للإنسان أن يخاف. فإذا لقّن نفسه هذا ثمّ كرّر الإقدام والورود في المخاوف والمهاول زالت عنه رذيلة الخوف، وهكذا الأمر في غيره من الرذائل والفضائل.

فهذا ما يقتضيه المسلك الأوّل على ما تقدّم في البيان وخلاصته إصلاح النفس وتعديل ملكاتها لغرض الصفة المحمودة والثناء الجميل.

ونظيره ما يقتضيه المسلك الثاني، وهو مسلك الأنبياء وأرباب الشرائع، إنّما هو التفاوت من حيث الغرض والغاية، فإنّ غاية الاستكمال الخلقيّ في المسلك الأوّل الفضيلة المحمودة عند الناس والثناء الجميل منهم، وغايته في المسلك الثاني السعادة الحقيقيّة للإنسان وهو استكمال الإيمان بالله وآياته، والخير الأخرويّ وهي سعادة وكمال في الواقع لا عند الناس فقط، ومع ذلك، فالمسلكان يشتركان في أنّ الغاية القصوى والغرض فيها الفضيلة الإنسانيّة من حيث

العمل.

العفّة	العدالة	الحكمة	الشجاعة
١. الحياء	١. استقلال النفس	١. سهولة التعليم	١. عدم الطيش
٢. السخاء	٢. الصداقة	٢. الذكاء	٢. كبر النفس
أ. الكرم	٣. الزهد	٣. الذكر	٣. الشهامة
ب. المسامحة	٤. الألفة	٤. صفاء الذهن	٤. عظم الهمّة
ج. الإيثار	٥. صلة الرحم	٥. سرعة الفهم	٥. احتمال الكدّ
د. النيل	٦. التضحية	٦. التعقّل	٦. النجدة
هـ. المواساة	٧. كرم الطبع وعلوّه		٧. الحلم
٣. الدّعة	٨. المكافأة		٨. الصبر
٤. الورع	٩. المراقبة		٩. الثبات
٥. الصبر	١٠. حُسن الشركة		
٦. الوقار	١١. المسالمة		
٧. الحرية	١٢. التودد		
٨. المسالمة	١٣. المروّة		
٩. القناعة	١٤. العبادة		
١٠. حسن هدي	١٥. ترك الحقد		
١١. الدماثة	١٦. اللطف		
١٢. الانتظام			

مستند ٨

وأمّا المسلك الثالث المتقدّم بيانه، فيفارق الأوّلين بأنّ الغرض فيه ابتغاء وجه الله إلّا اقتناء الفضيلة الإنسانيّة ولذلك ربّما اختلفت المقاصد التي فيه مع ما في المسلكين الأوّلين فربّما كان الاعتدال الخلقيّ فيه غير الاعتدال الذي فيهما وعلى هذا القياس. وبيان ذلك أنّ العبد إذا أخذ إيمانه في الاشتداد والازدياد انجذبت نفسه إلى التفكير في ناحية ربّه، واستحضار أسمائه الحسنى، وصفاته الجميلة المنزّهة عن النقص والشين ولا تزال تزيد نفسه انجذابًا، وتترقّى

مراقبته حتّى صار يعبد الله كأنه يراه وأن ربه يراه، ويتجلى له في مجالي الجذبة والمراقبة والحب فيأخذ الحبّ في الاشتداد لأنّ الإنسان مفطور على حبّ الجميل، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾[1]، وصار يتّبع الرسول في جميع حركاته وسكناته لأنّ حبّ الشيء يوجب حبّ آثاره، والرسول من آثاره وآياته كما أنّ العالم أيضًا آثاره وآياته تعالى، ولا يزال يشتدّ هذا الحبّ ثمّ يشتدّ حتّى ينقطع إليه من كلّ شيء، ولا يحبّ إلّا ربّه، ولا يخضع قلبه إلّا لوجهه فإنّ هذا العبد لا يعثر بشيء، ولا يقف على شيء وعنده شيء من الجمال والحسن إلّا وجد أنّ ما عنده أنموذج يحكي ما عنده من كمال لا ينفد وجمال لا يتناهى وحسن لا يحدّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، وكلّ ما كان لغيره فهو له، لأنّ كلّ ما سواه آية له ليس له إلّا ذلك. والآية لا نفسيّة لها، وإنّما هي حكاية تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحبّ على قلبه، ولا يزال يستولي، ولا ينظر إلى شيء إلّا لأنّه آية من آيات ربّه، وبالجملة فينقطع حبّه عن كلّ شيء إلى ربّه، فلا يحبّ شيئًا إلّا لله سبحانه وفي الله سبحانه.

وحينئذٍ يتبدّل نحو إدراكه وعمله فلا يرى شيئًا إلّا ويرى الله سبحانه قبله ومعه، وتسقط الأشياء عنده من حيّز الاستقلال فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس لأنّهم إنّما ينظرون إلى كلّ شيء من وراء حجاب الاستقلال بخلافه، هذا من جهة العلم، وكذلك الأمر من جهة العمل فإنّه إذا كان لا يحبّ إلّا لله فلا يريد شيئًا إلّا لله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف، ولا يختار، ولا يترك، ولا ييأس، ولا يستوحش، ولا يرضى، ولا يسخط إلّا لله وفي الله فيختلف أغراضه مع ما للناس من الأغراض وتتبدّل غاية أفعاله فإنّه قد كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنّه فضيلة إنسانيّة، ويحذر الفعل أو الخلق لأنّه رذيلة إنسانيّة. وأمّا الآن فإنّما يريد وجه ربه، ولا همّ له في فضيلة ولا رذيلة، ولا شغل له بثناء جميل، وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة أو جنّة أو نار، وإنّما همّه ربّه، وزاده ذلك عبوديّته ودليله حبّه.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.

الفصل الثاني: في معرفة النفس وجهادها

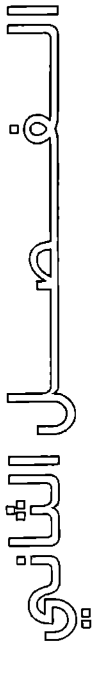
العناوين الرئيسة :

أ - تعريف النفس

ب - أقسام النفس وأوصافها

ج - مبادىء تحصيل النفس المطمئنة

د - فروع العلم والإخلاص له



أ- تعريف النفس

عرفت النفس في معجم مفردات القرآن الكريم أنّها «الروح في قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾[٨٤] فنفسه، ذاته»[٨٥].

وعند علماء الأخلاق:

الجوهر اللطيف الملكوتيّ الذي يستخدم هذا البدن الجسمانيّ في حاجاته، مسخّرًا له تسخير المولى لخدمه، وهو ذات الإنسان وحقيقته العالمة بالمعلومات، وله في هذا البدن جنود جسمانيّة هي الأعضاء، وجنود روحانيّة هي القوى. قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٨٦]. وقال نبيّنا: من عرف نفسه فقد عرف ربّه» وقال: «أعرفكم لنفسه أعرفكم بربّه وقد يسمّى هذا الجوهر الملكوتيّ بالروح لتوقّف حياة البدن عليه، وبالقلب لتقلّبه في الخواطر، وبالعقل لاكتسابه العلوم واتّصافه بالمدركات وقد تستعمل هذه الألفاظ الأربعة في معانٍ آخر تعرف بالقرائن[٨٧].

فالنفس إذن هي:

أ- جوهر: أي حقيقة قائمة بنفسها وبفضلها يكون للجسد حياته وحركته.

ب - لطيف ملكوتيّ: أي أنّ هذه الحقيقة تنتمي إلى عالم مجرّد من حيث الذات عن المادّة وإن كان بسبب لطافته قادرًا على الدخول في عالم المادّة دون أن يترك إنتماءه إلى عالم الغيب والملكوت.

ج - ونفس الإنسان هي حقيقة ذاته وهويّته، بحيث أنّه لو فقد بعضًا من بدنه، أو غير الزمن كلّ شكل جسمه فإنّ هويّته تبقى كما هي لبقاء نفسه.

د- وللنفس صنفين من القوى هما: القوى الماديّة من الأعضاء والجوارح، والقوى الحاكمة بالأعضاء والجوارح وهي الجوانح - أي القوى الداخليّة للنفس-.

هـ - تحمل النفس مغزىً مقدّسًا، بحيث إنّ من عرف هذا المغزى عرف مصدر النفس ومصدر الوجود الذي هو الله سبحانه.

---

(٨٤) سورة **الأنعام**، الآية ٩٣.

(٨٥) **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، مصدر سابق، الصفحة ٨١٨.

(٨٦) سورة **الذاريات**، الآية ٢١.

(٨٧) الفيض الكاشاني، **الحقائق في محاسن الأخلاق** (بيروت: دار الكتاب العربيّ، ١٩٧٩م)، الصفحة ٤٤.

و- وللنفس بحسب أحوالها مسمّيات عديدة كالروح والقلب والعقل وغير ذلك من شؤون الإنسان وخاصيّاته...

ب- أقسام النفس وأوصافها

في الواقع إنّ النفس واحدة لكنّ تقسيمها إلى أقسام هو من بسبب الصفة التي تتّصف بها فيتبع الموصوف - النفس- اسم الصفة. ومن ذلك:

أوّلاً: النفس المطمئنّة: وهي التي قد استقرّت وأطمأنّت وسكنت بسبب التزامها الأوامر والنواهي الإلهيّة، فزال عنها الاضطراب والقلق الذي يحصل بسبب اتباع الهوى وحبّ دار التزاحم والصراعات الجوفاء التي تمثّلها الدنيا.. فمخالفة الهوى واتباع الشريعة يجعل للنفس اطمئنانًا خاصًّا بحيث تكون هي «النفس المطمئنّة» التي قال عنها تعالى:﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴾[88]. وهذه أعلى درجات سموّ النفس، وهي الغاية المقصودة لكلّ ساعٍ إلى خلق المفاخر والكرم...

ثانيًا: النفس اللوّامة: وتعود هذه التسمية للنفس إذا كانت تلوم صاحبها عند أيّ تقصير في عبادة المولى سبحانه. وقد ورد ذكر هذه التسمية بالقرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[89]. ومن ميزات هذه الرتبة للنفس أنّها لم تسكن وتطمئنّ، لكنّها ما زالت تدافع الشهوات والغضب، وتعمل على الوصول لتكون في مرتبة أعلى هي «النفس المطمئنة».

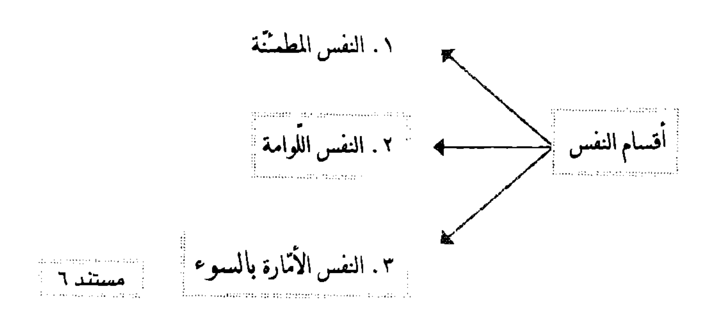
ثالثًا: النفس الأمّارة بالسوء: أمّا إذا أذعنت النفس وأطاعت الشهوات ودواعي الشيطان، وتركت الاعتراض على صاحبها عند وقوعه بمخالفة الديّان فإنّه يطلق عليها اسم النفس الأمّارة - أعاذنا الله منها - والنفس الأمّارة بالسوء ابتلاء كبير على المرء الذي عليه الاستعاذة واللجوء إلى الله سبحانه ليخلّصه منها. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾[90].

---

(٨٨) سورة **الفجر**، الآيتان ٢٧ و ٢٨.

(٨٩) سورة **القيامة**، الآية ٢.

(٩٠) سورة **يوسف**، الآية ٥٣.



طبائع النفس

يختلط في النفس أربع شوائب، قابلة لتورد الإنسان الهلكات، كما وأنّها قابلة لتنجيه إذا أخضعها لحكم الشرع والعقل. وهذه الشوائب هي:

- **الصفات السبعيّة:** «فهو من حيث سلّط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العدواة والبغضاء والتهجّم على الناس بالضرب والشتم»(٩١).

- **الصفات البهيميّة:** «وهو من حيث سلّطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والسبق وغيره»(٩٢).

- **الصفات الشيطانيّة:** إذ بسبب تسلّط الخيال والوهم عليه يعمل بكلّ صنوف المكر والخديعة والتلبيس والإضلال.

- **الصفات التربيبيّة:** وبها «يدّعي لنفسه الربوبيّة ويحبّ الاستيلاء والاستعلاء والتخصيص والاستبداد بالأمور كلّها، والتفرّد بالربّانية والانسلال من ربقة العبوديّة والتواضع، ويشتهي الاطلاع على العلوم كلّها، بل يدّعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق العلوم، ويفرح إذا نسب إلى الجهل والإحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلايق»(٩٣).

إلّا أنّ الإنسان بما أعطاه الله سبحانه من قوّة العقل الذي إذا استخدمه بالحكمة، ومن قوّة الإرادة التي إذا استخدمها بالحلم والشجاعة، يستطيع أن يهذّب هذه الطبائع وينقلها إلى مسار الصراط الإنسانيّ القويم على درب

---

(٩١) **الحقائق في محاسن الأخلاق**، مصدر سابق، الصفحتان ٤٥ و٤٦.

(٩٢) المصدر نفسه، الصفحتان ٤٥ و٤٦.

(٩٣) المصدر نفسه، الصفحتان ٤٥ و٤٦.

العبوديّة والخضوع لله، وإلّا فإنّ استسلامه يعني خضوعه لذلّ عبوديّة الذات بكلّ ما فيها من أدران وانحرافات، إذ

للقلب جنود أخر هي العلم والحكمة والتفكّر وحقّه أن يستعين بهذه الجند فإنّها حزب الله على الجندين الآخرين - الغضب والشهوة - لأنّهما قد يلتحقان بحزب الشيطان، فإذا ترك الاستعانة وسلّط على نفسه جندا الغضب والشهوة هلك يقيناً وخسر خسراناً مبيناً(٩٤).

بعد تبيان ما يتعلّق بالنفس وقواها، فإنّ معرفة النفس في كيفيّة رعايتها لكلّ شؤونها وصفاتها مع كونها واحدة وفي طبيعة تسخيرها لمملكة البدن بنحو فيه نفحة من الربوبيّة عليه، تعرّف أهل العبرة على مثال يشير إلى وحدانيّة ربّ النفوس وربوبيّته على خلقه ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(٩٥).

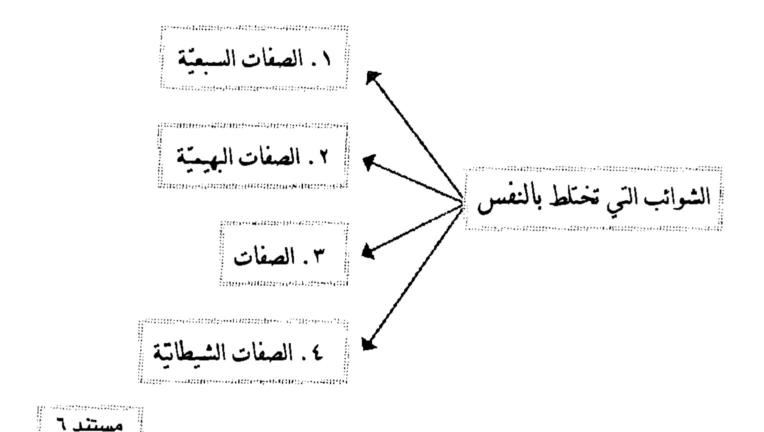
كما وعلى أهل العبرة والتذكّر أن يعرفوا أنّ السير والسلوك وفضائل الأخلاق إنّما تتمّ الحركة لتحصيلها من منطلق النفس وبالنفس وإلى النفس لذا جاء عن الإمام علي، عليه السلام: «ميدانكم الأوّل أنفسكم إن قدرتم عليها كنتم على غيرها أقدر وإن عجزتم عنها كنتم عن غيرها أعجز، فجرّبوا معها الكفاح».

ولتهذيب هذه النفس والوصول بها إلى المبتغى والمقصد يجب أن يقوم المرء بجهادها -

---

(٩٤) المصدر نفسه، الصفحة ٤٥.

(٩٥) سورة فصّلت، الآية ٥٣.



تقويم

١- حلّل تعريف النفس.

٢- اشرح النص التالي: «وللنفس بحسب أحوالها مسمّيات عديدة كالروح والقلب والعقل وغير ذلك - من شؤون الإنسان وخاصيّاته».

٣- عدّد أصناف النفس شارحًا لكلّ واحد منها.

٤- استعرض الشوائب الأربعة التي تختلط في النفس شرحًا وتحليلًا.

ج- مبادىء تحصيل النفس المطمئنة

المبدأ الأوّل: تحصيل العلم الأشرف والمعرفة الأسمى

تعريف العلم

جاء في **مفردات ألفاظ القرآن**: «العلم إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشيء. والثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه.

والعلم من وجه ضربان: نظريّ، وعمليّ. فالنظريّ: ما إذا علم فقد كمل، نحو العلم بموجودات العالم. والعملي: ما لا يتمّ إلّا بأن يعمل كالعلم بالعبادات.

ومن وجه آخر ضربان: عقليٌّ وسمعيّ، وأعلمته وعلّمته في الأصل واحد، إلّا أنّ الإعلام اُختصّ بما كان بإخبار سريع، والتعليم اختصّ بما يكون بتكرير

وتكثير حتّى يحصل منه أثر في نفس المتعلّم»[٩٦].

والعلم قد يكون دنيويًّا لتلبية احتياجات تسخير العالم إلى ما فيه مصلحة الإنسان ونفعه، وعلم الأديان وهو على وجوه منها علم الشريعة الذي هو علم الرواية والدراية. فإذا «جمعتها فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة»[٩٧].

ووجه آخر هو العلم اللدنيّ «وهو العلم الذي يتعلّمه العبد من الله تعالى، من غير واسطة ملك أو نبيّ»[٩٨].

والفقه في الدين هنا يعني التبصّر الربّاني في العلم..

ومن وجه رابع، علم اليقين «وهو ما كان بشرط البرهان وهو علم أرباب العقول[٩٩]».

أهميّة العلم

للعلم أهميّة خاصّة في المقاصد الإسلاميّة، وفي تربية الإنسانيّة على هدي الرحمن سبحانه ومن أسباب أهميّة العلم نذكر الأمور التالية:

أوّلًا: أنّه السبب في خلق الخلق وأنّه السبب والطريق لمعرفة الله والتقرّب إليه سبحانه.. لذا جاء في الذكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[١٠٠]. وفي الخبر القدسيّ «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف[١٠١]».

ثانيًا: أنّ فيه سرّ تجرّد النفس لتحصيل كمالها لأنّها التي خلقت لأجلها إذ «إنّ العلم والتجرّد متلازمان، فكلّما تزداد النفس علمًا، تزداد تجرّدًا ولا ريب

---

(٩٦) **مفردات ألفاظ القرآن**، مصدر سابق، الصفحة ٥٨.

(٩٧) عبد المنعم الحفي، **معجم مصطلحات الصوفيّة** (دار المسيرة، ١٩٨٧م)، الصفحة ١٨٨.

(٩٨) المصدر نفسه، الصفحة ١٨٨.

(٩٩) المصدر نفسه، الصفحة ١٨٨.

(١٠٠) سورة **الطلاق**، الآية١٢.

(١٠١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٨٤، الصفحة ١٩٩.

في أنّ التجرّد أشرف الكمالات المتصوّرة للإنسان، إذ به يحصل التشبّه بالملأ الأعلى وأهل القرب من الله[١٠٢]».

ثالثًا، أنّه وسيلة تحقيق السعادة الأبديّة التي لا تتحقّق إلّا بالعلم والعمل. فعن النبيّ: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدّوا أعينهم إلى ما متّع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها[١٠٣]».

رابعًا، أنّ العلم لحامله يشكّل عزًّا ووقارًا في الدنيا، فضلًا عن كونه منشأ رفع درجاته في الآخرة. ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١٠٤]، و﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١٠٥].

خامسًا، بالعلم يحصل الإنسان على سرّ الولاية على الكائنات ويرجع الأمر إلى أنّ «إدراك الأشياء والإحاطه بها هو نوع تملّك وتصرّف لها، إذ تقرّ في ذات المدرك حقائقها وصورها، ومثل هذا التملّك لدوامه وجزئيّة المدرك للمدرك أقوى من ملكيّة الأعيان المبائنة لذات المالك، الزائلة عنه... والتحقيق أن إطلاق الملكية عليه مجازي، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحت القهر والاستيلاء على الأشياء والمالكية لها بأي نحو كان، إذ معنى الربوبية التوحيد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء»[١٠٦].

سادسًا، أنّ العلم ضدّ الجهل، وهو هنا الحكمة التي تشغل النفس بنور الحقيقة المطابقة للواقع على ما هو عليه.. «ونور العلم يظهر للقلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة، فينكشف من ذلك النور أمورٌ كان يسمع من قبل أسماءها، ويتوهّم لها معانٍ مجملة غير متّضحة»[١٠٧]، وهل بعد هذا الشرف الذي هو نعمة ولطف بمباشرة الله سبحانه لنفس الإنسان ورعايته له، شرف

---

(١٠٢) الشيخ النراقي، **جامع السعادات**، تحقيق السيّد محمّد كلانتر (النجف الأشرف: دار النعمان)، الجزء ١، الصفحة ١١٠.

(١٠٣) **جامع السعادات**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١١٣.

(١٠٤) سورة **المجادلة**، الآية١١.

(١٠٥) سورة **الزمر**، الآية ٩.

(١٠٦) **جامع السعادات**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١١٠.

(١٠٧) **الحقائق في محاسن الأخلاق**، مصدر سابق، الصفحة ٥١.

أعظم وأقدس..

المبدأ الثاني: اقتران العلم بالإخلاص والالتزام

ليس كلّ علم يحصّله الإنسان يقرّبه إلى الله سبحانه. فبعض العلوم تورد المرء موارد التهلكة، حتّى ولو كان هذا العلم هو علم التوحيد. فمعيار نفع العلم هو بالتقرّب إلى الله وحدوث الخشية من الله عند النفس ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[108].

وهذا يظهر في التزامات الإنسان الشرعيّة، وبتصديق فعله قوله. ولهؤلاء سيماء خاصّ إذ يذكّر النظر إلى وجهه بسبب وقار الخشية في نفسه، بالله سبحانه وباليوم الآخر.

ثمّ هناك معيارٌ ذاتيّ للعلم النافع وهو أن يكون طلبه لمجرّد التقرّب إلى الله والفوز بالرضوان فعن الإمام الباقر، عليه السلام: «من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس فليتبوّأ مقعده من النار»[109].

وعلى الإنسان أن يلتزم آداب الاتّصاف بالعلم فلا يقول إلّا ما يعلم ويسكت عمّا لا يعلم حتّى يرجع إليه ويعلمه. ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله خصّ عباده بآيتين من كتابه: ألا يقولوا حتى يعلموا، ولا يردّوا مالم يعلموا، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾[110]، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[111][112].

ومن طبيعة ما هو العلم النافع وصفاته يمكن أن نتعرّف إلى ثلاثة مستويات من أهل العلم النافع وهم:

---

(١٠٨) سورة **فاطر**، الآية ٢٨.

(١٠٩) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٣٩.

(١١٠) سورة **الأعراف**، الآية ١٦٩.

(١١١) سورة **يونس**، الآية ٣٩.

(١١٢) الشيخ الكليني، **الكافي**، تصحيح علي أكبر الغفّاري، (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٥، ١٣٦٣ هـ.ش)، الجزء ١، الصفحة ٤٣.

عالم بالله غير عالم بأمر الله فهو عبد استولت المعرفة الإلهية على قلبه فصار مستغرقًا بمشاهدة نور الجلال والكبرياء، فلا يتفرّغ لتعلّم علم الأحكام إلّا ما لا بدّ منه، وعالم بأمر الله غير عالم بالله فهو الذي عرف الحلال والحرام ودقائق الأحكام لكنّه لا يعرف أسرار جلال الله تعالى، وعالم بالله وبأمر الله فهو جالس على الحدّ المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات فهو تارة مع الله بالحبّ له وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة فإذا رجع من ربّه إلى الخلق صار معهم كواحد منهم كأنّه لا يعرف الله تعالى وإذا خلا بربّه مشتغلًا بذكره وخدمته فكأنّه لا يعرف الخلق فهذا سبيل المرسلين والصدّيقين[١١٣].

وهذا وقد ورد عن كميل بن زياد النخعيّ قال:

كنت مع أمير المؤمنين، عليه السلام، في مسجد الكوفة وقد صلّينا عشاء الآخرة فأخذ بيدي حتّى خرجنا من المسجد فمشى حتّى خرج إلى ظهر الكوفة لا يكلّمني بكلمة فلمّا أصحر تنفّس الصعداء ثمّ قال: يا كميل إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، احفظ عنّي ما أقول لك: الناس ثلاثة عالم ربّانيّ، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق، يميلون مع كلّ ريح، لم يتسضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا كميل محبّة العلم دين يُدان به، يكسب الإنسان به الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته، يا كميل مات خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه إنّ ههنا - وأشار بيده إلى صدره - لعلمًا جمًّا لو أصبت له حملة، بل أصبت لقنا[١١٤] غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، ومستظهرًا بحجج الله عزّ وجل على خلقه، وبنعمه على عباده ليتّخذه الضعفاء وليجة دون وليّ الحقّ، أو منقادًا لحملة العلم لا بصيرة له في أحنائه[١١٥] ينقدح الشكّ في

(١١٣) الشهيد الثاني، **منية المريد**، تحقيق رضا المختاري، (مكتب الإعلام الإسلاميّ، الطبعة ١، ١٤٠٩هـ)، الصفحة ١٢٤.

(١١٤) أي سريع الفهم.

(١١٥) الضمير يرجع إلى العلم، والاحناء: الأطراف أي لعدم علمه بالبرهان والحجّة.

قلبه بأوّل عارض من شبهة، ألا لا ذا ولا ذاك[١١٦] أو منهومًا[١١٧] باللذات، سلس القيادة للشهوات. أو مغرمًا[١١٨] بالجمع والادخار، ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شيء شبهًا بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه. اللهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجّة (إمّا) ظاهر مشهور أو مستتر مغمور لئلّا تبطل حجج الله وبيناته، وكم وأين[١١٩] أولئك، أولئك والله الأقلّون عددًا، والأعظمون خطرًا بهم يحفظ الله حججه وبيناته حتّى يودعوها نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقائق الأمور، وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون[١٢٠]، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون[١٢١]، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالمحلّ الأعلى. يا كميل أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه

آه آه[١٢٢] شوقًا إلى رؤيتهم، ثمّ نزع يده من يدي وقال عليه السلام: انصرف إذا شئت[١٢٣].

تقويم

١- ما هو تعريف العلم بحسب الراغب الأصفهاني؟

٢- حلّل النصوص التالية شرحًا ودلالة:

«العلم سبب في خلق الخلق...»

في العلم «سرّ تجرّد النفس لتحصيل كمالها... إذ إنّ العلم والتجرّد متلازمان فكلّما تزداد النفس علمًا تزداد تجرّدًا...».

---

(١١٦) «لا ذا» إشارة إلى المنقاد . «ولا ذاك» إشارة إلى اللقن ويجوز أن يكون بمعنى لا هذا المنقاد محمود عند الله ولا ذاك اللقن.

(١١٧) أي حريصًا عليها منهمكًا فيها والمنهوم في الأصل هو الذي لا يشبع من طعام.

(١١٨) بفتح الراء أي مولعًا.

(١١٩) استبطاء لمدّة غيبة القائم عجّل الله فرجه وتبرّم من امتداد دولة أعدائه.

(١٢٠) استسهلوا ما استصعبه المترفون من رفض الشهوات وقطع التعلّقات.

(١٢١) من الطاعات والقربات والمجاهدات في الدين.

(١٢٢) الغرض إظهار الشوق إليهم، والتوجّع على مفارقتهم.

(١٢٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٤، الصفحة ٣٦.

د- من فروع العلم والإخلاص لله

- **الحكمة**

عرّف الراغب الأصفهاني الحكمة بقوله:

الحكمة: إصابة الحقّ بالعلم العقل، والحكمة من الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات وفعل الخيرات. وهذا[١٢٤] هو الذي وصف به لقمان في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[١٢٥] . أمّا في تعريفها الاصطلاحيّ فهي: «معرفة آفاق النفس والشيطان...وقيل هي معرفة الحقّ لذاته والخير لأجل العمل به... والحكمة معرفة الصانع تعالى بما له من صفات الكمال والتنزّه عن النقصان، وبما صدر عنه من الآثار والأفعال في النشأة والآخرة[١٢٦].

تحليل ونقاش

ما الفرق بين الحكمة من الله والحكمة من الإنسان بحسب الراغب الأصفهاني؟

وفي **معجم مصطلحات الصوفيّة** للكاشي:

الحكمة هي العلم بحقائق الأشياء وأوصافها وخواصّها وأحكامها على ما هي عليه، وارتباط الأسباب بالمسبّبات، وأسرار انضباط نظام الموجودات، والعمل بمقتضاه ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١٢٧] ومن معانيها معرفة الباطل والاجتناب عنه؛ اللّهم أرنا الحقّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه إنّك مجيب الدعوات.

كما وقيل: إنّ الحكمة المنطوق بها هي علوم الشريعة والطريقة لذا فقد أطلق العلماء على كلّ علم أو معرفة نظريّة تتعلّق بالصواب والاعتدال في المنظور العقليّ اسم الحكمة النظريّة، كما أطلقوا على كلّ حكم معتدل وصائب في

(١٢٤) **مفردات ألفاظ القرآن**، مصدر سابق، الصفحة ٢٤٩.

(١٢٥) سورة **لقمان**، الآية ١٢.

(١٢٦) **معجم مصطلحات الصوفيّة**، مصدر سابق، الصفحة ٨٠.

(١٢٧) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٩.

السلوك النفسيّ أو العمليّ - العباديّ والأخلاقيّ- كما وفي السلوك الاجتماعيّ والسياسيّ اسم الحكمة العمليّة. ومن هنا كان الإسلام هو دين الحكمة.. ولهذا عُدّت الحكمة من مبادئ فضائل النفس الناطقة المميزة - عند الحكماء- .

أقسام الحكمة

الكلام عن أقسام الحكمة هو كلام عن أمور تؤهّل للاستعداد والتلقّي، وتثبت الحكمة... وهذه الأقسام هي:

«إمّا **الذكاء**، وهو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس.

وإمّا **الذكر**، فهو ثبات صورة ما يخلّصه العقل أو الوهم من الأمور.

وإمّا **التعقّل**، فهو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعة بقدر ما هي عليه.

وإمّا **صفاء الذهن**، فهو استعداد النفس للاستخراج المطلوب.

وإمّا **جودة الذهن**، وقوّته فهو تأمّل النفس لما قد لزم من المقدّم.

وإمّا **سهولة التعلّم**، فهي قوّة النفس وحدة في الفهم، بها تدرك الأمور النظريّة»[١٢٨].

فضل الحكمة

إذا كانت الأمور والأشياء تأخذ قيمتها، إمّا من ذاتها، أو ممّا ترتبط به.. فإنّ الحكمة تكون بذلك من أشرف الأمور...

فالحكمة مطلوبة لذاتها، حتّى ولو كان الطريق إليها فيه العوائق والمصاعب. فقد ورد في الخبر عن المسيح عليه السلام: «لو وجدتم سراجًا يتوقّد بالقطران في ليلة مظلمة لاستضأتم به ولم يمنعكم منه ريح نتنة، كذلك ينبغي لكم أن تأخذواً ممّن وجدتموها معه، ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها»[١٢٩]...

ولهذا أسمى رسول الله، صلّى الله عليه وآله، القيمة الذاتيّة للحكمة بـ «ضالّة المؤمن» أي غايته المنشودة، فقد ورد عنه صلّى الله عليه وآله: «كلمة

---

(١٢٨) مسكويه، **تهذيب الأخلاق** (بيروت: مكتبة الحياة)، الصفحتان ٤٠-٤١.

(١٢٩) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٤٥.

الحكمة ضالّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقّ بها»[١٣٠].

وعن أمير المؤمنين، عليه السلام: «الحكمة ضالّة المؤمن، فاطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحقّ بها وأهلها»[١٣١].

كما وأنّ الحكمة تتشرّف بالانتساب إلى مصدرها الذي هو ربّ الحكماء، وحكيم الحكماء، سبحانه وتعالى... ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١٣٢]. وعن الأمير، عليه السلام: «من خزائن الغيب تظهر الحكمة»[١٣٣].

ثمّ أنّها تشرّف بالدور المنوط بها فعن لقمان الحكيم، عليه السلام، من وصيّته لابنه: «يا بنيّ تعلّم الحكمة تشرف، ففنى الحكمة تدلّ على الدين، وتشرّف العبد على الحرّ، وترفع المسكين على الغنيّ، وتقدّم الصغير على الكبير»[١٣٤].

هذا ويتشرّف المرء بالحكمة، فعن رسول الله، صلّى الله عليه وآله: «كاد الحكيم أن يكون نبيًّا»[١٣٥]... وعن أمير المؤمنين، عليه السلام: «الحكماء أشرف الناس أنفسًا، وأكثرهم صبرًا، وأسرعهم عفوًا، وأوسعهم أخلاقًا»[١٣٦].

وعليه، فإذا كانت الحكمة على هذا السموّ من الشرف والرفعة، فإنّها ممّا يستحقّ البحث عن كلّ ما يسبّبها ويجعلها تركّز في النفس، كما والبحث عن كلّ ما يمكن أن يمنع حصولها عند النفس أيضًا، لتجنّبه والابتعاد عنه... ومن ذلك ما قاله الإمام الصادق عليه السلام: «من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه»[١٣٧]. وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله «من أخلص لله

(١٣٠) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ١٠٠.

(١٣١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٩٧.

(١٣٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٩

(١٣٣) محمّد الريشهري، **ميزان الحكمة**، (دار الحديث، الطبعة ١، ١٤١٦هـ)، الجزء ١، الصفحة ٦٧.

(١٣٤) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٢١٩.

(١٣٥) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٦٧١.

(١٣٦) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٦٧١.

(١٣٧) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٢٨.

أربعين صباحًا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[138]. وعن الإمام علي، عليه السلام: «أغلب الشهوة تكمل لك الحكمة»[139].

أمّا ما يمنع الحكمة فهو سفه الرأي والتكبّر، فعن الإمام الكاظم، عليه السلام: «إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبّر الجبّار، لأنّ الله جعل التواضع آلة العقل»[140]. وعن الإمام الهادي، عليه السلام: «الحكمة لا تنجع في الطباع الفاسدة»[141].

تقويم

١- قارن بين مفهوم التفكّر بحسب الراغب الأصفهاني ومفهوم التفكّر وفق التعريف الإصطلاحيّ.

٢- اشرح النصّ التالي مبيّنًا دلالاته: التفكير هو «سير لحقيقة الإنسان كقوّة عاقلة انطلاقًا من المبادئ المتعلّقة بالحقائق المحيطة به والمعبّر عنها بالآيات الآفاقيّة التي تندمج وتتوحّد في أثناء «السير» مع ذاته العارفة التي عليه التفكّر بها عبر الآيات الأنفسيّة».

٣- اذكر ثمار التفكّر محلّلًا وشارحًا لها.

• التفكّر

التفكّر بحسب التعريف من «الفكرة»، وهي: قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم. والتفكّر: جولان تلك القوّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يمكن أن يقال إلّا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب. ولهذا روي تفكّروا في آلاء الله ولا تفكّروا في الله إذ كان الله منزّهًا من أن يوصف بصورة.

---

(١٣٨) المازندراني، **شرح أصول الكافي**، تحقيق الميرزا الشعراني، (بيروت : دار إحياء التراث العربي، الطبعة ١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م)، الجزء ٨، الصفحة ٤٩.

(١٣٩) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٦٧٤.

(١٤٠) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٥٣.

(١٤١) **ميزان الحكمة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٦٧٥.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِم﴾[١٤٢]، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾[١٤٣]، ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[١٤٤]. ورجل فكّير: كثيرة الفكرة، وهو ترك الأمور وبحثها طلبًا للوصول إلى حقيقتها»[١٤٥].

أمّا بحسب التعريف الاصطلاحيّ، فقد عدّ التفكّر

«سراج القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضارّه، كلّ قلب لا تفكّر فيه فهو في ظلمات يتخبّط والعبد يتفكّر في نفسه وفي كتاب الله تعالى وفي صفاته وأفعاله، والتفكّر في ذات الله لا سبيل إليه إلّا بمجرّد الذكر... وبقدر ما يتفكّر في ملكه وملكوته وصفاته يزداد حبه لانكشاف جماله، وذلك بتدبّره في معاني أسمائه وصفاته، والتفكّر في السموات والأرض والكواكب وكلّ شيء سوى الله تعالى، فإنّه خلقه وصنعه»[١٤٦].

فالتفكّر إذن هو إعمال للعقل بتدبّر في آيات الله وفي الوجود وشؤون الحياة والمآل، يقرّب الإنسان إلى شوق الذكر والوصال مع الحقّ المتعادل.

كلام للخواجه نصير الدين الطوسي حول التفكّر

أفرد الحكيم الطوسي في كتابه **أوصاف الأشراف** فصلًا مستقلًّا للكلام عن التفكّر في الباب الثالث من كتابه والذي خصّصه «في السير والسلوك في طلب الكمال، وأحوال السالك». وممّا جاء فيه:

إنّه - التفكّر- سير باطن الإنسان من المبادي إلى المقاصد... ولا يمكن لأحد أن يصل من مرتبة النقصان إلى مرتبة الكمال إلّا بالسير، ولذلك قيل: إنّ أوّل الواجبات هو التفكّر والنظر... وينبغي أن يعلم أنّ مبادي السير التي منها ابتداء الحركة هي الآفاق والأنفس، والسير هو الاستدلال من آياتها، وهي الحكم التي توجد في كلّ ذرّة من ذرّات الكونين الدالّة على عظمة المبدع وكماله قال الله

(١٤٢) سورة **الروم**، الآية ٨.

(١٤٣) سورة **الأعراف**، الآية ١٨٤.

(١٤٤) سورة **البقرة**، الآيتان ٢١٩- ٢٢٠.

(١٤٥) **مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، مصدر سابق، الصفحة ٦٤٣.

(١٤٦) **معجم مصطلحات الصوفية**، مصدر سابق، الصفحة ٤٦.

تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[١٤٧][١٤٨].

ثمّ يستشهد من حضرة جلاله على كلّ ما سواه من مبدعاته كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١٤٩]. لينجلي له كلّ ذرّة من ذرّات العالم. وأمّا المقاصد فهي منتهى السير، وهو الوصول إلى نهاية مراتب الكمال»[١٥٠].

فالتفكير إذن هو:

أوّلاً، سير لحقيقة الإنسان كقوّة عاقلة انطلاقًا من المبادئ المتعلّقة بالحقائق المحيطة به، والمعبّر عنها بالآيات الآفاقيّة، التي تندمج وتتوحّد في أثناء «السير» مع ذاته العارفة التي عليه التفكّر بها عبر الآيات الأنفسيّة ليكتشف بذلك حقائق الكونين اكتشافًا يتجاوز المفاهيم الجامدة إلى معرفة مؤثّرة في عمق كيانه.

ثانيًا، النيل على عمق أسرار الوجود كدلالات تشير إلى الواحد المبدع الحيّ القدير سبحانه وتعالى.

ثالثًا، إذا استقرّ بالتفكّر الأمر عرف أنّ كلّ ما في الوجود إنّما يرتبط على نحو حقيقيّ بربّه ومبدعه، وبالتالي فبمقدار معرفته بالمبدع سبحانه تتنامى معرفته بكلّ مناحي الوجود والحياة.

رابعًا، حتّى إذا ما استنارت في قلبه حقيقة سرّ الآفاق والأنفس ومدى عبوديّتها وفقرها لله سبحانه، عرف أن لا شيء في الوجود غيره، وأن لا معبود سواه سبحانه. ففني الإنسان عن ذاته وتعلّقاته ليبقى ذاتًا وخلقًا وحقيقة بربّه سبحانه، وهو البقاء بعد الفناء.

من هنا، كان التفكّر من أصول فضائل الأخلاق، وهو يمثّل المقصد الذي على الإنسان أن يتّجه إليه في أموره العباديّة والعلميّة النافعة سواءً في الدنيا أو الآخرة. فقد ورد عن أبي عبد الله، عليه السلام، قوله: «أفضل العبادة إدمان

---

(١٤٧) سورة **فصّلت**، الآية ٥٣.

(١٤٨) نصير الدين الطوسي، **أوصاف الأشراف** (بيروت: مركز نون للتأليف والترجمة، الطبعة ١، ٢٠١١م)، الصفحة ٥٠.

(١٤٩) سورة **فصّلت**، الآية ٥٣.

(١٥٠) **أوصاف الأشراف**، مصدر سابق، الصفحة ٥١.

التفكّر في الله وفي قدرته[١٥١]». كما ورد عن النبيّ، صلّى الله عليه وآله: «فكرة ساعة خيرًا من عبادة سنة، ولا ينال منزلة التفكّر إلّا من قد خصّه الله بنور المعرفة والتوحيد»[١٥٢].

ولهذا فإنّ تأثير العبادة، بل وتأثير الذكر الحكيم لا يكون، إلّا بإعمال الفكر والتفكّر ففي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١٥٣]. كما وأنّ للتفكّر آثاره الموجهة للسلوك الإنسانيّ، فعن أبي عبد الله عليه السلام «التفكّر يدعو إلى البر والعمل به»[١٥٤].

ولتحصيل الثمرة النافعة من التفكّر فقد حثّت الآيات والروايات على التفكّر في جملة من الموارد منها:

أوّلًا، التفكّر في الآفاق والأنفس: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ﴾[١٥٥].

ثانيًا، التفكّر في كتاب الله العزيز: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١٥٦].

ثالثًا، التفكّر في الموت والمعاد: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١٥٧].

هذا وورد عن النبيّ، صلّى الله عليه وآله: «أفضل الزهد في الدنيا ذكر الموت، [...] فمن أثقله ذكر الموت وجد قبره روضة من رياض الجنّة»[١٥٨].

أمّا عن اليوم الآخر فقوله سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[١٥٩].

---

(١٥١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٥٥.

(١٥٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٨، الصفحة ٣٢٦.

(١٥٣) سورة **النحل**، الآية ٤٤.

(١٥٤) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٥٥.

(١٥٥) سورة **الروم**، الآية ٨.

(١٥٦) سورة **محمّد**، الآية ٢٤.

(١٥٧) سورة **الجمعة**، الآية ٨.

(١٥٨) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ١٣٧.

(١٥٩) سورة **المؤمنون**، الآية ١١٥.

رابعًا: التفكّر في الحياة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾[١٦٠].
هكذا فإنّ في التفكّر إحياءً للعقل ومعارفه وهو إحياء للقلب وحقائقه، وإحياءً للنفس وما تستكنّه أنّه إحياءً لثمرة العبادة وسبيل السير نحو تحقيق رضا الرحمن. وبه ينال الإنسان فرصة التكامل والكمال ومن دون التفكّر لا يمكن أن نتعرّف إلى الأخلاق وفضائلها وأسرارها وثمراتها. ذلك أنّه مشعل الضوء الذي يسمح للإنسان أن يستنير بذكر الله سبحانه.

• التذكّر

إنّ التذكّر مستوىً من مستويات الإخلاص في معرفة الله سبحانه والتوجّه إليه. وذلك بذكره سبحانه، وشكر نعمائه التي منَّ بها على الإنسان.. وهذا يتمّ إجمالاً من خلال تعظيم الباري سبحانه في كلّ ناحية من نواحي الوجود والخلق والحياة التي يمكن للإنسان أن يتفكّر فيها.

لذلك، فإنّ التذكّر يكون إجمالاً بعد التفكّر، بل هو ثمرة التفكّر، وهو الكمال المطلوب من التفكّر. من هنا، عبَّر البعض أنّ التذكّر هو ذاك الصفاء الفطريّ للنفس، بحيث يحضر اللبّ الإنسانيّ عند الإنسان، فيعايش حقيقة ما انطبع عليه في نفسه وروحه وسرّه من التوحيد والمعارف بعد النسيان بسبب التلبُّس بالغواشي الدنيويّة وتكدّراتها، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١٦١]. ويُبنى التذكّر على ثلاثة أمور:

الأمر الأوّل: الانتفاع بالعظة وتأثّر النفس بسماع الوعد الإلهيّ بحسن الجزاء، والخوف من الوعيد بسوء العاقبة، وما ينتظر الإنسان بعد حياته الدنيا من موت وبرزخ وحشر وحساب. وهذا الانتفاع بالعظة هو الذي يورث التقوى.

إذ العظة زجرٌ مقترنٌ بتخويف، وهو التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب، ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١٦٢]، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا

(١٦٠) سورة **العنكبوت**، الآية ٢٠.
(١٦١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٩.
(١٦٢) سورة **النحل**، الآية ٩٠.

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ، هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[١٦٣].

الأمر الثاني: العمل بحسب البصيرة التي أودعها الله سبحانه في نفس الإنسان ليميّز بها الخير من الشرّ والصالح من الفاسد. فإنّ استهداء الإنسان بالبصيرة التي تنير ثمرة العبرة ومآلات الأمور في حياة الإنسان والأحداث من حوله، بل والتبصّر بما يستهدي بهم من حقائق الوجود، تدفع الإنسان نحو طلب النجاة ممّا يجعل لحياته ووجوده معنىً، وتأكيد الرغبة الذاتيّة بتحصيل السعادة والكمال.

«فيا لها أمثالاً صائبة، ومواعظ شافية، لو صادفت قلوبًا زاكية وأسماعًا واعية، وآراءً عازمةً، وألبابًا حازمة. فاتقوا الله تقية من سمع فخشع... وعُبِّر فاعتبر، وحُذّر فحذر، وزجر فازدجر»[١٦٤]، و«رحم الله امرئً تفكّر فاعتبر، واعتبر فأبصر»[١٦٥].

الأمر الثالث: الظفر بثمرة التفكّر والفكرة فهو على نوعين:

أحدهما: «العمل بمقتضى العلم الحاصل بالفكر الصائب في الأعمال والأخلاق فإنّه يوجب العمل الصالح، ومن عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم، بالتذكّر لما في الفطرة. للتنوّر والصفاء الحاصل بالعمل الصالح.

والثاني: حصول المعارف والحقائق الكامنة في الاستعداد الفكريّ، فإنّ الفكر معدّ لقبول المعنى الفائض بحسب الاستعداد على سبيل التذكّر»[١٦٦].

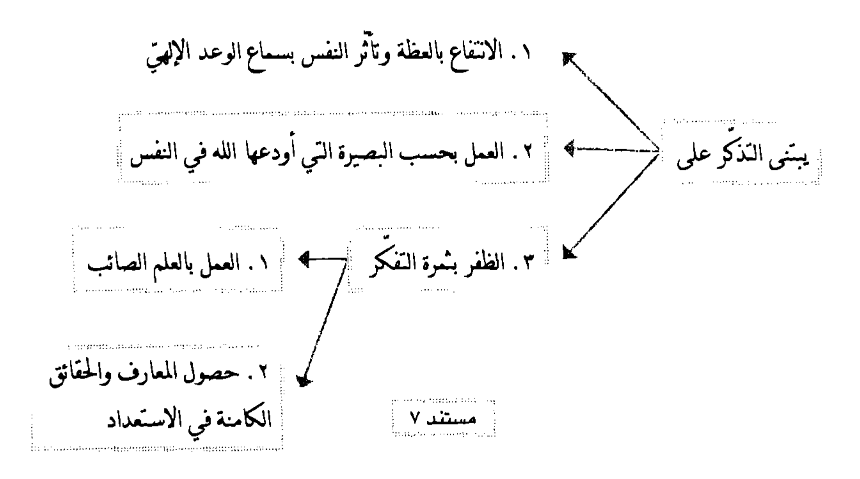
---

(١٦٣) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٣٧و ١٣٨.

(١٦٤) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٣٨.

(١٦٥) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ١٩٨.

(١٦٦) الكاشاني، **شرح منازل السائرين**، تحقيق محسن بيدار فر (دار الحوراء)، الصفحة ٧١.



وهنا نلحظ كيف أنّ التذكّر يجمع بين التفكّر وكلّ كمالاته وثماره، وبين العمل الصالح والالتزامات التي تجعل من الإنسان على وفق الإرادة الإلهيّة وغاياتها من خلق الإنسان.

وبمثل هذا التبصّر والتذكّر يشتدّ ارتباط الإنسان بربّه سبحانه، كما ويتعمّق ارتباطه بالآخرة والحياة الخالدة التي أعدّها الله للمتّقين.. وهكذا يظهر لنا معنى العلاقة بين العلم والمعرفة والتقوى؛ وهي علاقة تفاعليّة، إذ بالعلم الذي فيه التذكّر يحصل الإنسان على التقوى، بل يعمّق الإنسان التقوى. وبالتقوى يستحقّ الإنسان نيل المعرفة والعلم الإلهيّ «من يتق الله يعلّمه الله».

ومن الروايات التي تستحقّ التدبّر والعناية في الفهم، ما ورد عن أمير المؤمنين، عليه السلام:

فاتقوا الله عباد الله، تقيّة ذي لبّ شغل التفكّر قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجُّد غرار نومه، وأظمأ الرجاء هواجر يومه وظلف الزهد شهواته، وأوجف الذكر بلسانه، وقدَّم الخوف لأمانه، وتنكّب المخالج عن وضح السبيل، وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب، ولم تفتله فاتلات الغرور، ولم تعمَ عليه مشتبهات الأمور، ظافرًا بفرحة البشرى، وراحة النعمى، في أنعم نومه، وآمن يومه، وقد عبر معبر العاجلة حميدًا، وقدَّم زاد الآجلة سعيدًا، وبادر من وجل، وأكمش في مهل، ورغب في طلب، وذهب عن هرب، وراقب في يومه غده، ونظر قُدُمًا أمامه، فكفى بالجنّة ثوابًا ونوالًا، وكفى بالنار عقابًا ووبالًا،

وكفى بالله منتقمًا ونصيرًا، وكفى بالكتاب حجيجًا وخصيمًا[١٦٧].

تقويم

١- ما العلاقة بين التفكّر والتذكّر؟

٢- عدّد الأمور الثلاثة التي يبتنى عليها التذكّر شارحًا ومحلّلًا لها.

(١٦٧) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٤٢.